
رواية
مطلب كفر الغلابة
رضا سليمان
سما
للنشر والتوزيع
المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع

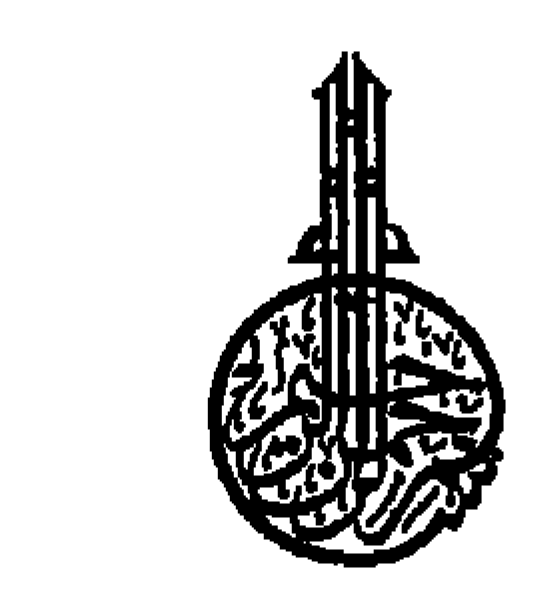
مطلب كفر الغلابة

رواية

بقلم

رضا سليمان





العنـــوان: مـطلب كـفـر الغـلابـة

المــؤلــف: رضــا سـليمـان

إشراف عـام: نجـلاء قاســم

الناشــر



25 امتداد ولي العهد حدائق القبة
تليفون: 24517300 - 01271919100
emil: samanasher@yahoo.com

التوزيــع

المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع

80 ش طومان باي - الزيتون - القاهرة
تليفون: 24518068 - 01099998240
emil: aldawleah_group1@yahoo.com

تصميم الغلاف: كريم سيد

إخراج داخلي: معتز حسنين

الترقيم الدولي: 978-977-6451-61-2
رقم الإيداع: 2014 / 5521
الطبعة الأولى: مارس 2014

مطلب
كفر
الغلابة

إهـــداء

إلـــى زوجـــتـــي..

إلـــى أولادي..

إليكم بعض مما عانيت منه كثيرًا..

رضا سُليمان

اللوحة الأولى

عمدة عزبة المغفلين

فـي الجامـع الكبيـر بقريـة الكرامـة كفـر تعيلـب سـابقًا يقـف المصلـون في صلاة العشـاء، ثلاثة صفوف خلف الإمام، التشـهد الأخير، يسـود صمت عميق، طالت مدتـه، تنحنح أحد المصلين، يعقبه آخر، يسعل ثالث. يهدأ المكان مرة أخرى.

درجـة الحرارة تصل لأعلى معدلاتهـا، يحرك أحدهم يده فوق رأسه ليهش بها حشرة من حشرات ليل الصيف. معظمهم يغرق في عرقه رغم مراوح السـقف المنتشـرة في المسجد ورغم أن الخادم قلـل نسـبة الإضاءة بقـدر الإمكان حتـى لا تزيد من ارتفـاع درجة الحرارة وكيلا تجتذب البعض من حشرات الليل، لكن الصورة لـم تأت كما أراد الخادم فلا الحرارة انخفضت ولا الحشرات قلت..

إمام صلاة العشاء الليلة شيخ مُسن يحتفظ ببقايا صحة، يبدو أنه في هذه اللحظات قد أخذته نوبة شـرود وتأمل. لم يعد إلى رشـده إلا بعـد أن طالت المدة وسـعل أحد المصلين بشـدة وكررها آخر أكثر من مرة..

سـلم الإمام يمينًا ويسـارًا وفعل مثله بقية الحضـور بنفاد صبر، انتشـروا في المسجد بسـرعة ملحوظة، حتى إنهم لم ينتظروا حتى ينتهي الصف الأخير من إتمام صلاته..

منهم من فضل الجلوس تحت مروحة سـقف مباشـرة، يتجنب الأذى بهوائهـا وإن كان هواء سـاخن باهـت.. ومنهم من اتخذ من أحد الأعمدة مسـندا وركن ظهره عليه وفرد سـاقه أمامه لمرضه أو كبر سـنه، يظـل بعض الشـباب في أماكنهم، والبعض الأخر زاحم المرضى وكبار السن في الارتكان إلى جدران المسجد وأعمدته.. بعد دقيقتين تقريبًا بدأ الجامع يشـهد نوع آخر من الحركة والنشاط الذي انقسـم إلى قسـمين، الأول قـام لصلاة ركعتى السـنة وركعة الوتر، والثانى قام للخروج من المسجد..

بين هذا الجمع تاه الحاج «فتيحه فرج» وهو رجل في الخمسين من عمره، طويل، جسـده متناسـق، أسمر اللون من لفحة الشمس، عينـاه غائرتان، فـي وجهه تجاعيد، أطراف أصابع يديه بها شـقوق وأوساخ لا تُزال مهما كثُر غسلها، فتيحه من الشخصيات المحبوبة فـي القرية رغم أنه قليل الكلام وتتسـم ملامحه بنـوع من الجدية، ولكـن هنـاك في شـخصية فتيحه شـيء صغيـر موجود فـي العمق يجعـل كل من يعرفه يود أن يتخذه صديقًا أو حتى يتسـامر معه في أي شـأن، فقـد كان من هذه النوعيـة التي تجعل مـن أمامه يتحمله حتى وإن كان فظًا غليظًا، دائمًا ما كان يلقى بتعبيرات سـاخرة وفي

غير محلها فيغير مجرى الحديث من الجد إلى الهزل، قليلًا ما كان يتضايق منه أحد أو يعاتبه أحد «عقله على قده».

فتيحه فرج الذي يتوسـط الجامع مباشرة بعد الانتهاء من صلاة العشـاء لم يستطع الارتكان بظهـره إلى عمود أو جدًّار فقد سـبقه آخـرون.. تمنـى في هذه اللحظـة التي أنهي فيها الإمـام صلاته أن يخـرج، إلا أن حظـه العاثر جعل من في الميمنة ومن في الميسـرة يقفان ليصليان السُنة..

حاول فتيحه التملص مرتدًا إلى الخلف لكنه فوجئ بآخر يصلى وهنـا لـم يجد بُـد من الانتظـار حتى ينتهـي هؤلاء مـن صلاتهم، بعدها يسـتطيع المرور ومن ثم الخروج، رفض فكرة سـريعة مرت علـى ذهنه وهي أن يُجازف ويخرج ولن يمنعه أحد، لكنه فضل أن يُمضى الوقت في أن يقف هو الآخر ويصلى ركعتى السـنة، سـيما وأنه خشـي سلطان النوم، فقد فتح فمه بأقصى قدر ممكن في حال التثاؤب، تظهر بعض من أسنانه البُنية اللون التي كادت أن تختفي، فهو فلاح أصيل من محبى الشـاى المغلي والسـجاير اللف زمان، أما الآن هو من رواد «المضغ» في القرية، يُرسـل دائمًا من يشـتريه له من القرية المجاورة.

يقف مكانـه وهو يتثاءب للمرة الثانية، يرفع يديه عاليا ثم ينزلها بهـدوء ليركنها فوق صـدره ويبدأ في الصلاة، تثـاءب للمرة الثالثة وفيهـا أصدر صوتـا مصاحبا أنهـاه بآهة ممطوطة يضطـر أخيرا أن

يرفع يده ليواري فمه تفاديا لحدوث أية مشكلة من الحشرات الليلية، ومحاولا إنهاء هذا الصوت الذي يلفت الأنظار..

أنهي صلاته واستغل الفرصة وخرج بأسرع ما يكون، متمنيًا الوصول إلى سريره بفارغ صبر، أخذ حذاءه من أحد الأركان وتوجه إلى الباب المؤدي إلى الشارع..

أمام المسجد البعض يقف في جماعات، الشباب، الموظفون، وكل في شأنه يتحدث.. هناك جماعة أخرى من الفلاحين، من المحتم على فتيحه أن يمر عليهم، خشى أن يستوقفوه، مر سريعا وألقى التحية.. لكن محاولته باءت بالفشل، فقد استدعاه أحدهم..

- فتيحه.. تعالى..

- أصلى مروح..

ضحك أحدهم:

- ما كلنا مروحين.. هو حد فاضل.. !!

اتجه فتيحه مجبرا إليهم ووقف معهم دون أن يصافحهم لئلا يستغرق هذا وقتا أكثر من اللازم.. وسألهم بهدوء:

- خير يا رجاله؟

- خير يا فتيحه.. عايزين نعرف بس هاتزرع أيه؟

- هازرع اللي هاتزرعوه..

- كلنـا قلنـا نفس الـكلام.. الحـوض الغربـي كله فيـه حوالى أربعين فدان بيزرع فيه حوالى ستين اسم كلهم قالوا نفس الكلام..

حـاول فتيحـه أن يتثاءب لإظهـار رغبته في النوم، واستعد بأن يجيـب، إن سـأله أحدهـم عـن احتياجـه للنـوم، بأن هـذا صحيح لأنـه مستيقظ من قبل الفجر ومن لحظتها لـم تـر عينه النوم، ولكن التثاؤب ظهر أنه مصطنع.. وأيضًا لم يسأله أحد فقال فتيحه:

- ما هو حاجة من اتنين يا رز يا دره..

- الحكومة السنه دي عايزه نزرع قطن..

- يا عم دا كلام بنسـمعه كل سـنه وبنزرع اللي إحنا عايزينه وما فيش حاجة بتحصل..

- طيب يا فتيحه لو شددوا على حكاية القطن دية، هاتزرع؟

- كنا بنزرع القطن وعارفين ديته، الأيام دية ما فيش خُلق وروح للمجازفة..

- علـى رأيك يا فتيحـه.. دا آنى زرعته آخر مرة، الفدان يا دوب جاب حق البذرة والرى..

- أجدعها شجرة قطن كانت شايلة لوزة أو اتنين..

- ألا عرفتوا آخر الأخبار؟

تتركز على ملامح وجهه نظراتهم وهم يتساءلون:

- خير.. فيه أيه؟

يأخذ المتحدث هيئة العالم ببواطن الأمور، يفرد ظهره قليلًا، يتحدث بهدوء:

- كنت بادفع الإيجار من كام يوم وصاحب الأرض قالي إن دي جايز تكون أخر مرة..

- ليه هايستغنى عن الإيجار؟

- لأه وانت الصادق دا هايستغنى عننا وهايخد الأرض..

- يا جدع قول كلام غير دا..

يضطرب فتيحه عند سماع ذلك ولكنه هدأ عندما سمع أحدهم يعقب:

- يا عم إنت وهو.. الكلام دا بنسمعه من سنين ومابيحصلش..

- لأ خلاص.. دول بيقولوا هايغيروا قانون الإيجار ويا ندفع الإيجار الجديد يا نسيب الأرض..

يتأمل أحدهم فتيحه لحظات، يراه شاردا ساهما، يضع يده على كتفه متسائلا:

- مالك يا فتيحه مسهم ليه كدا؟

- باسمع اللي بتقولوه..

- يا أخي ما تاخدش في بالك، دا كلام مش صحيح..

ينظر فتيحه إليهم جميعًا وكأنه يستمد قوته منهم، ثم يبتسم ويعود إلى طبيعته وهو يعقب في هدوء:

- كلنا في الهوى سوا..

- يعنى مش همك؟

- إزاي بقى، هو إحنا من غير الأرض نعرف نعيش..

- أمال تقصد أيه؟

- قصدي نسيبها لله ووقتها تفرج..

- على رأيك.. المهم نتفق هانزرع أيه بس ما حدش يقول قطن أحسن الحكاية مش ناقصة؟

- طب ياريت بذرة زمان موجودة وأنا كنت أول واحد يزرع القطن..

- يا عم الحكاية مش بذرة وبس..

- وهو فيه أيه تاني؟

يشعر فتيحه بأن الحديث القادم سيكون بلا فائدة، مجرد رصد لحقائق عاشها الناس بالفعل ولن يعود عليهم من ذكرها سوى تقليب المواجع ومصمصة الشفاه على الأيام الماضية، نظر في وجوههم جميعًا، ثم زفر بشده وقال:

- نزرع رز.. وزي ما تيجي..

- خلاص نديها رز..

يتحرك فتيحه تاركا المكان:

– طب سلاموا عليكم يا رجاله، أحسن جايز يجيلنا ضيوف دلوقتي..

لا ينتظر إجابة، يتركهم وقد ظهر عليه الضيق الشديد، فقد شُغل تفكيره، وأخرجه هؤلاء من حالة الاستعداد للنوم، يريد أن يُسرع بالذهاب إلى المنزل قبل أن يطير النوم من عينيه، لكن استكمالا لحالة السخط هبت نسمة صيف جعلت ما تبقى في أجفانه من ثِقل يذهب بلا رجعة..

وصل فتيحه إلى منزله، دفع الباب بشيء من الشدة حتى فُتح، ترباس الباب فقد قدرته على العمل منذ زمن طويل، ولم يفكر فتيحه ذات يوم في الحصول على بديل له، اكتفي أهل المنزل بأن يُحبك الباب فقط...

ذات يوم شعر فتيحه بشيء من القلق حيال ذلك ولكنه لم يجد لديه الحماسّ لتغييره، فأقنع نفسه:

ـ البلد أمان، وبعدين الحرامية إن دخلت البيت هاتسيب اللي في جيوبها شفقة وتخرج..

كانت سعدية، زوجة فتيحه سيدة في الأربعين من عمرها، تجلس أمام التلفزيون في الصالة تشاهد المسلسل، لا تحتفظ بجمال، تميل إلى القصر بعض الشيء، باستمرار تربط فوق رأسها قطعة من قماش أسمر خفيف «شُقه» ومن أسفلها تظهر أذنيها وقد برزتا إلى الخارج قليلًا يتدلى منهما قرط مخرطة، استطاعت شراءه

بعد أن دخلت جمعية بعشـرة جنيهات في الشهر، كان نصيبها منها مائة وعشـرين جنيها دفعة واحدة، ذهبت بهم إلى الصائغ واشترت هـذا القـرط وتبقى للصائغ عشـرة جنيهات، لـم تسـددها له إلا بعد أن انتهت من سـداد جميع أقسـاط الجمعية، ظلـت فترة من الزمن تحاول إظهار هذا القرط أمام جيرانها.

سـعدية مندمجـة تمامًا فـي متابعة الحلقـة، وتنام إلـى جوارها ابنتها مسـعدة وهي في العاشـرة من عمرها، والتي تعد آخر حبات العنقود.

أنجبت سعدية من فتيحه خمسة أبناء هم بالترتيب رشاد ،جابر، فايزة، محمود وأخيرا مسعدة..

كان اسـم رشـاد تخليدا لذكرى صديق عزيز على فتيحه وفايزه صممـت عليه سـعديه لأنه اسـم والدتها وبالتالى صمـم فتيحه هو الآخـر على أن يُلقب فتاته الأخيرة مسـعدة تخليدا لذكرى والدته، أمـا عن جابر ومحمود فهمـا قد لقبا هكـذا دون التفكير في تخليد ذكرى أحد..

رشاد في الثلاثين من عمره تزوج واستطاع أن يقيم منزلا بسيطا في طرف القرية..

جابـر الأصغـر من رشـاد بعاميـن، يعمل نجار مُسـلح، يُسـافر للعمل باليومية فـي القاهرة وفي المدن الجديدة، وبوجه عام يعتبر غير موجود بالمنزل..

فايزه تزوجت منذ عامين من حجازي الذي يعمل في دق الطلمبات..

لم يبق في المنزل سوى محمود الطالب في المدرسة الإعدادية ومسعدة في الابتدائي..

يدخل فتيحه إلى الصالة، ولم تلتفت إليه سعدية، جهاز التلفزيون داخل صندوق من خشب قديم استطاع فتيحه أن يُقنع نجار الموبيليا بأن يصنعه له وذلك يوم أن قرر شراء التلفزيون، على الرغم من أن التلفزيون قديم ومستعمل وكان فتيحه قد تحدث إلى السمسار أكثر من مرة طالبا منه إياه، ولكنه كان ينسي الفكرة تمامًا عند سماع الأسعار، أمام إلحاح سعدية يضطر لأن يقترض من ابنه جابر مبلغ على سبيل السلف الذي لا يرد ويدفعه للسمسار، يدخل التلفزيون إلى المنزل تسبقه فرحة السمسار التي تعادل فرحة أصحاب الانتصارات العظيمة، تكرمه سعديه بكوب عصير ليمون بارد وعبارات ثناء لا حصر لها.

أما عن بقية المبلغ وكيفية تسديدة، فإن الله وحده هو الأعلم بكيفية تسديدة..

الصندوق الموضوع فيه التلفزيون كان به رفين، الأعلى مخصص للجهاز، والسفلى توضع فيه أشياء غير محددة من قبيل أكواب الشاى الفارغة.. أطباق بها بقايا طعام..

يجلس فتيحه في الطرف الأخر من الصالة حيث قطعة حصير بالية على الأرض الخرسانية، يركن ظهره إلى الحائط مقررا اشغال نفسه بالمسلسل حتى يطرق النوم بابه..

شعر ببرودة نابعة من الأرض فاستلقى على ظهره واضعا كفيه تحت رأسه كمخدة وقد استعذب البرودة في ظهره بأكمله إلى أقصى درجة.

تذكر يوم قرر فيه أن يواكب العصر ودخول القرن الحادي والعشرين ومواكبته للعصر تمثلت في أن يجعل أرضية المنزل بالخرسانة بدلًا من التراب الشِرب وذلك لأن الفئران كانت تستطيع بسهولة عمل أنفاق في الأرض للسطو على محتويات مشنة العيش، أو تصل إلى الحجرة التي تُبيّت فيها سعدية بطها وفراخها حتى أن «العِرسة» ذات يوم دخلت إلى هذه الحجرة وخنقت ما استطاعت خنقه، ورغم إدراك فتيحه بأنه من المستحيل على سعدية التصدي للعِرسة إن هي دخلت حجرة البط والفراخ إلا أنه في هذا اليوم قلب حياة سعدية جحيما، قرر أن تعتزل سعدية تربية البط والفراخ، لكنها بعد مدة استطاعت إقناعه بأن الحل يكمن في الأرضية الخرسانية وهي بالإضافة إلى ذلك نوع من النظافة، والنظافة من الإيمان يا حاج فتيحه..

تستغل فرصة تقدم حجازي للزواج من فايزة وكثرة الزوار، وتتفق سرا مع جرار يحمل الرمل والزلط ليأتى بالمطلوب، لم يتبق سوى الأسمنت وأخيرًا انصاع فتيحه للأمر الواقع وعلق عليه بأن

«الخيرة فيما اختاره الله» واستعان ببعض الشخصيات التي لديها ميول للمشاركة والخدمات وتحولت أرضية المنزل إلى الأرضية الخرسانية.. باتوا ليلتهم أمام المنزل ومعهم قطع الأساس البسيطة.

في اليوم التالى تدخل سعدية وهي تبسمل وتحوقل وفي يدها ورقة وإبرة خياطة وتستعيذ من أعين الجيران وفلان وعلان من الحسد ومن الحاسدين وشرورهم.

عاد فتيحه من أرضه بعد الظهر على غير عادته، فقد كان يفضل أن يقضى وقت القيلولة على راس الأرض تحت شجرة الصفصاف لكنه في هذا اليوم كان لديه رغبة جارفة لمشاهدة منزله بعد التجديدّات التي أُدخلت عليه، وعندما شاهده ابتسم وقال في نفسه «بالفعل هي خطوة كان لابد منها».

شعر ببرودة الأرض الخرسانية تسرى في ظهره وهو مُلقى في الصالة في منزله البسيط.. أخرجته سعدية من أفكاره عندما ضحكت بشدة على أحد المشاهد في المسلسل، ينظر إليها فتيحه لحظه ثم يجلس وقد تولدت لديه رغبة مفاجئة في أن يتابع الحلقة وألا ينتظر النوم بهذا الشكل الممل.. فسأل زوجته:

- هو اتجوزها بزضه..؟

فقالت سعدية دون أن تلتفت له:

ـ لأه..

صمتت سعدية رغبة منها في المتابعة، يغتاظ فتيحه ويسألها مرة أخرى:

- أُمال ايه اللي حصل..؟

- هاقولك.. بس بعد الحلقة ما تخلص..

صمت فتيحه لحظة، شعر فيها بالضيق الشديد من سعدية، على الرغم من أنه يعرفها جيدا، إلا أنه في هذه اللحظة قرر أن يتمرد على طِباع زوجته لا سيما وأن حالة الملل التي أصابته جعلته أقرب إلى الإنفعال من الدِعه، يتحدث بشيء من الشدة:

- طيب سيبك من الهيافه دية وقومي ناوليني مجمع المضغ.

لم تلتفت إليه سعدية، مدت يدها في الرف الموجود أسفل رف التلفزيون وأخرجت منه علبة صغيرة اتفق الجميع على تسميتها بـ «مجمع» ناولتها له، ولم ترفع عينيها عن التلفزيون، يسحب فتيحه نفسًا عميقا محاولا التغلب على ضيقه الشديد وأخذ المجمع وأخرج منه قطعة صغيرة من المضغ ووضعها في فمه أسفل اللسان، ألهبته حرارتها، أغلق المجمع ثم نادي على سعدية مرة أخرى:

- خدي المجمع دا يا بت.

في هذه اللحظة انتهت الحلقة، فضحك فتيحه قائلًا:

- أحسن أهي خلصت..

تمطت سعدية شفتيها مظهرة تعجبها:

- طب وأيه يعنى، ما هي لازم تخلص.. هو أصلا ما كانش عايز يتجوزها دي هي اللي..

تعتدل سعدية في جلستها استعدادا لعملية الشرح لكن زوجها لم يعطها هذه الفرصة مقررا في أعماقه أنه يجب عليه أن يرد لها الإهانة:

- مش عايز أعرف.. قومي اعملي نص كباية شاي..

تناولت سعدية مجمع المضغ وهي جالسة في مكانها الأول، عندما طلب منها نصف كوب من الشاي تصارعت أمور كثيرة بداخلها لكنها لم تستطع التعبير إلا باعتراض بسيط فيه شيء من الطاعة:

- مش هاتاكل لقمه الأول؟

- لأه مش واكل.. أنا عايز شاى..

تجلس على ركبتيها ثم تعتدل واقفة، تتوجه إلى المطبخ، يظل فتيحه في مكانه مفكرًا، كيف تحمل كل هذه السنوات في العيش مع سعدية هذه، كتلة اللحم الناشف، حتى مجرد فكرة التخلص منها لم تأت له على بال، والأن عندما راوده هذا التفكير هز رأسه واعتدل مناديًا على سعدية بأن: تناوله شوية ميه ساقعة.

أتت سعدية وبيدها كوب الماء:

- مش لو عندنا تلاجة زي بقية الخلق كنت عرفت تشرب ميه ساقعة بجد؟

نظر فتيحه إلى سعدية طويلا قبل أن يرفع كوب الماء إلى فمه.

واقع الأمر أن فتيحه طلب منها الماء في هذه اللحظة بالذات ليراها عن قرب أطراف شعرها القصير الخشن المنتشر حول رباط رأسها ورقبتها التي تشعر من يراها بأنها لزجة وعليها طبقة من العرق والتراب، عيناها ضيقتان وأنفها متنافر مع وجهها الصغير المدور، لم يكن في وجهها حسنة وحيدة سوى شفتها السفلى التي برزت في هدوء يرى فيه المتأمل جمال لا سيما إن تم تخيلها بين أجزاء أخرى أجمل. ترتدي جلبابا من القماش الخفيف أعلاه مفتوح يكشف عن صدر ممسوح، نهديها قد سقطا فوق بطنها، من النادر جدًّا أن ترتدي سعدية حمالة صدر، غابت بشرتها تحت شعيرات باهته يراها الناظر بيسر.

تركته سعدية ودخلت المطبخ، عاد فتيحه إلى وضعه الأول التماسًا لبرودة الأرض.. إنه يتذكر يوم أن تزوجها عندما دخل الجيش قبل النكسة مباشرة، وفي أول أجازه طلب من والده أن يزوجه، وافقت هذه الرغبة هوى والده لأسباب منها أنه يريد بديلا عن فتيحه يعمل معه إلى جانب الأعمال المنزلية ورغبة خفية في أن ينجب أولادا ومن ثم تبدأ عائلة فرج التي طالما حلم بها في اليقظة والمنام..

ذهب فرج وولده فتيحه إلى منزل والد سعدية الذي رحب بهما ودخلت الأفراح عائلة سعدية، باعتبار أن فتيحه رجل «لقطه».

متطلبات الزواج سهلة، المقعد مقام فوق سطح المنزل، في يوم واحد نزلوا جميعًا إلى البندر المجاور، إلى ميت غمر، بالرغم من قصر المسافة حيث إنها لا تتعدي ثمانية كيلومترات، إلا أن النزول إليها يتحول إلى مثار لأحاديث القرية لمده طويلة.. نزلوا إلى ميت غمر لشراء كافة شيء لزوم الفرح..

لم يطرأ على بال فتيحه وقتها كون سعدية جميلة من عدمه، الأهم أنها سوف تكون زوجة وأم لأبنائه، رغم أن سعدية كانت تمتلك جسد مميز وشيء من النضارة التي ذهبت مع الإنجاب والعمل الدائم.

بعد يومين فقط من الزواج سافر فتيحه وكانت النكسة. يشعر بأن حياته قد تغيرت.. إلى الأسوأ طبعًا، حتى بعد أن رُزِق بابنه الأول رشاد أو حتى بعد نصر أكتوبر. لم يكن يُرهق نفَسه في عمليات فكريه لا يعى منها الكثير، يكفيه هذا الإحساس الذي تُشعره به سعدية من كونه رجلا وسيد الرجالة، توالت عمليات الحمل وتم له من الأولاد خمسة وكان معهم رزقهم، فقد استطاع من خلال العمل باليومية التعايش مع الحياة وتوفير شيء قليلٍ من المال حيث حصل على قطعة أرض صغيرة أقام عليها منزلًا صغيرًا وهو الذي يعيش فيه حتى الآن، ثم جازف أكثر من مرة وقام باستئجار قطعة أرض وزراعتها بالضبط مثلما كان يفعل والده.

بعـد عـدة سـنوات فضـل، مثـل بقية أهـل القريـة، كتابـة عقود الإيجـار الدائمة مع أصحـاب الأراضي وبقايـا الإقطاعيين، وكان نصيـب فتيحـة من هـذه الأرض تسـعة عشـر قيراطا كانـت بجوار الجانـب الغربى من القرية، يعيش هو وأسـرته كاملة على ما تنتجه هـذه القراريط، لم يطمح في أن يشـترى هذه الأرض لأنه ببسـاطة لا يمتلـك ثمنها، ولـم تكن لديه أية مواهب أخرى لاسـتغلالها في العمل في أي مجالات أخرى، لذا وجدها السـبب الوحيد للرزق، فاقتنع بذلك راضيا.

تذكر المعركة التي قامت بينه وبين سـعدية زوجته بعد أن إنتهي من الخدمة العسكرية بعد نصر أكتوبر.

كانـت الحكومة، وقتها، قد وفـرت للجنود وظائف، وقد نزلت أسـماء فتيحـة وزملائـه بالقريـة ضمـن المعينيـن فـي العمالـة في المدرسـة الابتدائية الموجودة في القرية، رفضت سـعدية بشدة أن تكون زوجة لفراش في مدرسـة، وانتهت المعركة باستسلام فتيحة ورفض الوظيفة، الحقيقة أن ذلك قابل رغبة بداخله فعشـقه للعمل في أرضه والجلوس إلى جوارها في أوقات فراغه قد ملأ كيان.

أتـت سـعدية بكوب حتى منتصفة شـاى أسـود، ناولتـه لفتيحه الـذي اعتدل وأخذ منها الكوب ورفعه أمام عينيه متأملا ولا يدري لماذا؟ ثم رشـفه في رشـفتين أو ثلاثة ثم وضع الكوب جانبا، نظر إلى سعدية التي جلست إلى جوار التلفزيون مرة أخرى تبحث بين قنواته عن مسلسل آخر..

تقلبـت الطفلـة مسـعدة ذات اليمين وذات اليسـار، فنظر فتيحه إلى زوجته وحدثها في لا مبالاة:

ـ ما تدخليها تنام جوه..

ـ طيب.. هادخلها لما آجى أدخل..

قالـت ذلك ولـم تنظر نحـوه، لم يولى ذلـك أية عنايـة، تثاءب وشـعر بدبيب في جسـده فوقف بهدوء متجها إلى الغرفة التي ينام فيها، ووقف أمام بابها يسأل زوجته:

ـ هو الواد محمود نام؟

ـ لأه محمـود لسـه بره.. هاسـتنى لمـا يجيى علشـان أجيب له يتعشى.

ـ طيب وطى البتاع دا شوية علشان أعرف أنام..

ـ إقفل باب الأوضه وراك وأنت مش ها تسمع حاجة..

لم يسمع فتيحة الجملة الأخيرة لأنه بالفعل كان قد دخل وأغلق الباب خلفة..

■ ■ ■

يستيقظ فتيحه فرج مبكرا كعادته، ذهب إلى الجامع، وكاد يطير فرحا عندما وجد دورة المياه التي تحتوى على «الدش» خاوية ولم يصل إليها أحد بعد..

دخل مباشـرة وخلع ثيابه كاملة وألقاها أعلى الباب وفتح الماء على آخره، إنســال الماء على جسده باردا منعشا، كان يأخذ أنفاسه تحـت المـاء بصعوبة ويشـهق ويزفر وانتشـر الرذاذ أمامه، عاكسـا الضوء السـاقط من المصباح الكهربائى فظهرت عدة ألوان، أغرت فتيحة على أن يعيد الوضع أكثر من مرة سـعيدا منتشـيا، ولـم يعكر صفـوه إلا صوت دقات على الباب، فقد كان من الطبيعي أن ينتظر أمام هذا الباب بالذات العديد من الأفراد خاصة في الصباح الباكر.

أغلـق المـاء وتناول قطع ثيابه، يرتديها دون أن يجـفف جسـده ثم لبس طاقية رأسـه البنية اللون وخرج وهو يعدل ثيابه، وجد أمام الباب أكثر من شـخص، فلم يهتم واتجه إلى داخل المسجد حيث صلاة الفجر..

عندمـا خـرج فتيحـه مـن المسـجد كان الليـل بأكمله قـد ولى وانتشــر نور الصبـاح وظهر جزء من قرص الشـمس يولد، زقزقت العصافيـر وهي تغادر أعشاشـها بحثا عن الطعـام وعلت صيحات الديوك بالتكبير وصرخـات الإوز والبط مختلطة بصرخات بعض الأطفال..

شـعر بالضيق حالما فشل في أن يعبر عن إحساسه حينما شاهد كل هذه الجزئيات في الصباح الباكر..

وصل إلى منزله واستقبله حماره بالنهيق، فمد فتيحه يده بجزء من برسيم ووضعه أمامه، وتوجه ناحية الجاموسة ووضع إليها العلف في المزود..

دخل إلى حجرة النوم فألفي سعدية تغط في نوم عميق مصدرة شخيرا متقطعا مصحوبا بهمهمات عصبية دالة على غرقها في حلم أليم، أيقظها:

ـ سعديه.. بت يا سعديه..قومى هاتى حاجة أغير بيها ريقى وأشرب عليها شوية شاى.. ما تقومى يا بت..

زغدها بيده عدة مرات متتالية فغاصت يده في لحمها المترهل، تتقلب سعدية في فراشها وتفتح عينيها بصعوبة، ثم تجلس فوق حافة السرير، تنظر نحوه بهدوء ممزوج ببقايا دهشة متسربة من أحلامها، تتحرك شفتيها ببعض عبارات الصباح كانت في مجملها تعبر عن استياءها من الاستيقاظ المبكر، بعدها تتوجه مباشرة إلى ممارسة أعمالها اليومية..

يجلس فتيحه أمام المنزل منتظرا زوجته، يشعر بالراحة والطمأنينة، فمد ساقيه على طولهما أمامه، لم يكن يهتم بالمارين فيرد بالتحية دون أن يلم ساقيه، ولكن الأصول لم تكن لتفوته، فعندما مر الأستاذ عبده جاره بسيارته لمّ فتيحه ساقيه بسرعة واعتدل في جلسته وهو يجيبه:

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. يا صباح الخير يا أستاذ عبده.. يا صباح الهنا يا راجل يا محترم..

كان الأستاذ عبده قد مر بالسيارة ولم يسمع كلمة واحدة وإنما إكتفي بأن شاهد يد فتيحه وهي تشير له..

هبط زوج من الحمام بالقرب منه ينقر الأرض بحثا عن طعام الإفطار وظل فترة جمع خلالها الكثير من الحبوب. انشغل بزوج الحمام حتى أتت زوجته من الداخل وقد حملت شقة عيش من خبيز المكنة وطبق به قطعة جبن أبيض وفي يدها الأخرى كوب الماء.. وضعت هذا أمامه ودخلت، فمد يده يكسر شقة العيش فوجدها ناشفة فقال بصوت مرتفع:

ـ يا بت يا سعديه.. ما فيش شقه طرية؟

يأتيه صوت سعديه من الداخل:

ـ لأه..

ـ لأه ليه.. ما عندك البرسيم، ما بيتيش فيه شقتين ليه عشان أعرف آكل؟

تخرج سعدية وفي يدها كوب الشاي وتضعه أمامه ثم تعدل مرة أخرى استعدادا للدخول قائلة:

ـ البرسيم ما عادشي ينفع دلوقتي يا فتيخه، خلاص نشف وبعدين أنا جايبه الميه معايا عشان ترش شوية منها على شقة العيش.

ـ خلاص.. أهي لقمة والسلام أشرب عليها الشاى واتصرفي إنتى واعملى حاجة طرية على سنانى عشان أتغذي بيها.

ـ وقت الغدا يفرجها ربنا..

تتركه وتدخل وهي تنادي بصوت مرتفع:

ـ مسعده، بت يا مسعده إنتى لسه نايمه، إش حال إن ما كنتِ نايمه قبل العشا؟

يضحك فتيحه ثم يحدث نفسه بصعوبة والطعام في فمه:

ـ إنت اللي ناصحة قوى يا سعديه.. دا الواحد لو سابك يومين هاتفضلى نايمه.

ينتهي من طعام إفطاره ويشرب الشاى بهدوء، وينادي على زوجته طالبا منها إحضار مجمع المضغ، بعد دقيقة تخرج الطفلة مسعدة وهي تترنح من سيطرة النوم عليها وفي يدها مجمع المضغ..

ـ المضغ يابا..

ـ صحيتي يا مسعد.. هاتى يا بنتى.. أمال أمك بتعمل أيه؟

ـ أمى دخلت تحلب الجاموسة.

نظر فتيحه إلى ابنته بحنان وطلب منها أن تأكل ما تبقى من الطعام ونظر متأملا متذكرا أمه، لقد كان يحبها حبا شديدا، فقد كانت تميل إلى الهدوء والسكينة وهذا ما ورثه عنها، باستمرار

يفتخر بذلك، تذكر يوم موتها منذ زمن ليس بالبعيد وكيف أنه شعر بعد وفاة والديه بفقد الزمن الجميل وأن البحث عنه أصبح كالبحث عن السراب ٥

ازدرد لعابه وهو ينظر إلى ابنته ثم قال بصوت مسموع:

ـ هيه.. دنيا.. ماحدش واخد منها حاجه.

فنظرت إليه بدهشة متسائلة وهي تنظر إلى الخبز والجبن في يدها:

ـ هيه أيه اللي ما حدش واخد منها حاجة يابا؟؟

فصمت لحظة وهو في حيرة من أمره ثم ضحك وهو يقول:

ـ الدنيا يا مسعده.

فنظرت إليه الطفلة بدهشة أكثر، ثم أكلت طعامها ولم تعقب.

وقف فتيحه تاركا المكان قائلًا:

ـ أنا سارح الغيط يا مسعده، وإن ما جيتشى على الضهر خلى أمك تبعت الغدا مع محمود أخوكي.

فأجابته مسعده وهي تتناول كوب الشاى الفارغ في محاولة بائسة للبحث فيه عن بقايا:

ـ وأنت مش جاى على الضهر ليه؟

ـ جايز الجرار يعدي عشان يحرت المشتل أصل إحنا هانزرع الأرض رز.

نظرت مسعده إليه وقد غمرتها سعادة لا توصف، فهي تحب زراعة الأرز جدًّا، لأن ذلك سوف يتيح لها النزول في الماء فترات لذيذة وقت شتل الأرز..

سار فتيحه في الشارع المؤدي إلى خارج القرية حيث الاتجاه إلى الحوض الغربى الذي تقع فيه قطعة أرضه.. تسعة عشر قيراط لا غير مزروعة الآن برسيم، ولكنه في النزع الأخير.

يصل إلى رأس الأرض ويجلس تحت شجرة الصفصاف على حافة الترعة والشمس قد صعدت إلى السماء وبدأت أشعتها الحامية في الوصول المباشر إلى الأرض.

جاره في الأرض سالم منصور، موجود الآن في أرضه، يشاهد فتيحه جالس تحت الصفصاف، ترك مكانه وذهب إليه، جلس إلى جواره:

- سلامو عليكم يا فتيحه..

- وعليكم السلام يا سالم، إنت بتعمل إيه في الأرض دلوقتي؟

- بحش البرسيم اللي فاضل.

- ومستعجل ليه؟

- ولا مستعجل والا حاجه..أنا قلت شوية البرسيم دول وجودهم زي قلته، أخلص منهم بقى عشان لما الجرار يجيى يحرت يبقى يحرتها على بعضها ونخلص وأهو الشمس تحمصها شوية.

- والله إنت واد نمس يا سالم.. وراسك دي رايقه.. خلاص آني هاعمل زيك.

- طب إنزل حش البرسيم..

- مش إنت قلت شوية برسيم زي قلتهم؟

- يعنى أيه؟

- يعنى الجرار يحرتهم مع الأرض.. وزي ما تيجي.

- لأه يا فتيحه.. قوم حش شوية البرسيم وروحهم.. هاينفعوا الجاموسة والحمار.

يقف سالم وينزل أرضه، وبعد فتره بسيطة يتبعه فتيحه وينزل أرضه هو الآخر، يأخذ المنجل من طرف الرِعِيَة كي يحش البرسيم، يقوم بالعمل في همة ونشاط على أكمل وجه.

هذه الحقيقة كان يعيها فتيحه جيدا، حيث أنه عندما يبدأ العمل فإنه يكون أفضل شخص يقوم بهذا العمل على الإطلاق، المشكلة الأساسية والتي يعترف بها أمام نفسه باستمرار هي مشكلة متعلقة بجزئية البدء فقط.

أعمل فتيحه يديه وجسده بأكمله حتى أستطاع أن يتفوق على سالم جاره ولم يبالى بالشمس الحارقة، غرق تمامًا في العمل، بحكم العادة غرق في بحر أفكاره، خرج تمامًا من حيز المكان.

يتذكر المغامرة الوحيدة في حياته.. عندما تمرد على هذه الحياة التقليدية. كان ذلك بعد أن اشترى التلفزيون وشاهد فيه أصناف من النساء وأدرك أن هناك أجناس أخرى غير سعدية.. فلم تكن هناك في القرية بأكملها فتاة أو سيدة يمكن أن يقال عنها أنها من هذا الجنس الذي يراه في التلفزيون، فكل نساء القرية من نفس جنس سعدية زوجته، خرج أكثر من مرة باحثا بلا إرادية عن «مَرَة» كما كان يقول في داخله:

- عاوز مرة يا خلق..

في القرية المجاورة عثر على مقصده «عليات» صاحبة المقهي المقام بجوار الكوبرى، شاهدها عندما جلس ليستريح من عناء الطريق وطلب كوب من الشاى وفوجىء بها تقدم إليه طلبه ونظر إلى جسدها الضخم وطولها الفارع وبشرتها الناعمة اللامعة رغم أنها تميل إلى السمرة وعيناها الواسعتان الغارقتان في الكحل وشفتيها تتساقط منهما الابتسامات الجميلة، مالت عليات ناحيته وهي تضع كوب الشاى متعمدة أن تغمره بأنفاسها الدافئة، استطاعت أن تلهبه بهذه الأنفاس، ولم يفارق فتيحه هذا المقهي بعد ذلك لعدة شهور.

بذل كل ما يملك من أساليب وأفعال لاستمالة عليات خاصة بعد أن علم أنها خالية، فهي أرملة منذ زمن طويل، لكنها رغم ذلك لم تفتن به، ولم ينل منها فتيحه أكثر من أنفاسها الملتهبة وجملة

وحيدة أطلقتها عندما شاهدت في عينيه شعور بالملل فقالت له عندما قدم إليها في يوم ما:

ـ وحشتنا يا سي فتيحه..

طار فتيحه من الفرح، وكانت هذه الجملة سببا في أن تجرأ وطلب الزواج من عليات مظهرا جدية لم يظهرها آخرون، بعد العديد من المباحثات وافقت عليات من قبيل «ظل راجل».

وصل الخبر إلى سعدية زوجة فتيحه عن طريق بعض رواد المقهي الرافضين لهذه العلاقة التي تمنعهم من تفريغ همومهم عند أقدام عليات.

قامت الدنيا على رأس سعدية وحملت أولادها الثلاثة رشاد وجابر وفايزة، فلم يكن محمود أو مسعدة قد أتوا بعد، وذهبت بهم إلى مأذون الناحية وبكت وأبكت الأطفال أمامه وحلفت بأغلظ الإيمان إن هو فعلها وعقد قران فتيحه على القهوجية اللي ما تتسماش، لتشعل النار في نفسها وتدور بين الخلق وهي مشتعلة وتخبرهم بأن المأذون وفتيحه أشعلا فيها النار للتخلص منها وإفساح الطريق أمام عليات القهوجية.

يتغلب المأذون على انفعالاته ويجمع رجال القرية من ذوى الكلمة والتأثير، يجتمعون بفتيحة في جلسة مغلقة، جلس فيها فتيحة مطأطئ الرأس كأنه يحصى عدد الدوائر الصغيرة الموجودة في الحصيرة، بعد مجهود اقنعوا فتيحه بأن يعدل عن رغبته.

وإن كان فتيحـه قد اقتنع حقًا، فإنه اقتنـع بعدم الزواج ولكنه لـم يقتنع بعدم الذهاب عند عليات ليشبع رغباته، ذات يوم سمع جملة فـي التلفزيون تعبر عن نفسـه تمامًا، ولكنه خشـى أن يكررها حتى لنفسه، الجملة على لسان أحد الممثلين في فيلم قديم:

- باحبها ومش هاقدر أعيش من غيرها.

كانـت الطامة الكبرى عنـد فتيحه.. فكيف يحـدث ذلك، على آخر الزمن يحب فتيحه؟!

آه لـو علم أهل القريـة بحكاية حبه هذه لأصبح نكتة الناحية. لا ضيـر من أن يطلب يـد إحداهن للزواج ولكن أن يعلـن أنه يحبها، فهـذه هـي الطامة الكبرى.. شـعر فتيحه بوخز فـي ضميره، فكيف انحدر إلى هذا المستوى وأحب؟ وأقسم أمام نفسه ألا يذهب إلى قهـوة عليات مرة أخرى وألا يعود لمثل هذه المعاصى أبدا، وحتى يكفـر عن خطيئتـه صام يوميـن متتالييـن وواظب علـى الصلوات الخمـس جماعة في المسـجد خلف الإمام مباشـرة حتى استطاع بالفعل أن ينسي عليات القهوجية، وعندما وصل إلى هذا المستوى فرح ووثق من قدراته وحاول أن يعوض سـعدية عن هذه الشـهور التـي مضت في حب عليـات فكانت الثمرة ابنهمـا محمود، وبعد ثلاث سنوات أتت مسعدة..

ينتهـي فتيحـه من المهمـة التي بدأهـا في أرض البرسـيم، ينظر سالـم ناحيته بطرف عينيه فوجده قد إنتهي قبله فقال في نفسه:

ـ فتيحه دا حمار شغل..

ألقى فتيحه نظرة على البرسيم الذي تكوم خلفه حبات.. حبات، ولم تمضي سوى دقائق حتى جعلها كوما واحدا على طرف الحقل، وأخذ منجله في يده ونظر إلى السماء والشمس قد توسطتها وأحس بأشعتها للمرة الأولى، يجلس تحت شجرة الصفصاف، يخلع حذاءه ويضعه تحت رأسه، يتمدد في ظل الشجرة ويأخذ أنفاسا طويلة من نسمات بسيطة أتت بفعل الظل.

تأمل الشجرة وكيف أنها كبرت وانتشرت في المكان، فقد كانت هذه الأرض عندما استأجرها من سنوات طويلة مثل البنت القرعة، لم يكن هناك مكان يجلس فيه على الإطلاق وكان يضطر للجلوس تحت شجرة تقع على رأس أرض بعيدة عنه بعض الشيء، شعوره حال جلوسه أسفل شجرة جاره لم يكن شعور متعة، كان يشعر بأنه غريب عن المكان، لم يستطع يومًا أن يدعوا أحد للجلوس معه، فهو نفسه ضيف، تمنى أن تكون لديه شجرة مثل هذه كبيرة تقع على رأس أرضه، يجلس تحتها وينعم بظلها، شعوره بأنها ملكه يجعله يستمتع أكثر بظلها، يشعر بشيء من العجز حيال ذلك لا سيما أنه لابد من مرور وقت طويل حتى تصل هذه الشجرة إلى المستوى المطلوب، فكان هذا هو السبب المباشر في التأجيل، وأنه ذات يومًا سمع من أحد الفلاحين ما كان يقلقه دائمًا ويفكر فيه بقلق من حين لآخر:

ـ هي أرضنا عشان نوضبها، دا إحنا يا دوب مأجرينها..

لكن الفكرة ظلت تلح على تفكيره حتى كان يوم عرض فيه القضية على ابنه البكر رشاد ووصف له مشاعره وأفكاره..

أراد رشاد أن يجعلها مفاجأة لوالده فاستغل فرصة عدم وجوده في الأرض وذهب إلي شجر الصفصاف الكثير المقام حول منطقة السواقي وأخذ معه فأس صغيرة سهلة الحمل والمنجل وصعد فوق الشجرة وعثر على مراده قائلًا:

- فرع طويل وسِرح..

ثبت نفسه فوق فرع ضخم من فروع الشجرة، تحسس الفرع الذي يود قطعه عند بدايته، أعمل فيه قدراته، خبطات متتالية بفأسة الصغيرة، أخيرا سقط الفرع وحمله رشاد فوق كتفه الأيمن والفأس الصغيرة والمنجل في يده اليسرى وتوجه إلى رأس الأرض، قام بعمل حفرة مناسبة وغرس الفرع وسقاه بالماء، وكان في طرف الفرع الأعلى بعض الفروع الصغيرة الخضراء التي نمت بعد ذلك. كانت هذه من المفاجآت السارة في حياة فتيحة عندما ذهب إلى أرضه وشاهدها. سُر بها كثيرًا وواظب على ريها ورعايتها.

مر العام الأول عليها وأصبحت شجرة ولكنها شحيحة الظل، كان يجلس تحتها فتيحه ورغم أن رأسه وجزء بسيط من جسده ينعم بظل الشجرة، إلا أنه كان يستمتع بذلك أكثر من الظل الكامل لشجرة جاره التي كان يجلس أسفلها.

مرت السنوات وكبرت الشجرة حتى تحولت إلى شجرة فتيحه الشهيرة التي يؤمها الهاربون من لهيب الشمس، تمنى في نفسه يومًا ما لو كان رشاد جعلها شجرة توت بدلا من الصفصاف، فكان بذلك ينعم بالحُسنيين، الظل والتوت في موسمه، لكنه لم يتحدث بذلك لأحد، حمل الجميل لإبنه وقرر أن يرده له يوم زواجه فأكرمه غاية الكرم وجهز له المقعد فوق السطوح، لكن رشاد قرر أن يعيش مع زوجته في منزل صغير بعيدا عن والده، وبقدر ما كان فتيحه سعيدا بأن ابنه كبر وترعرع واستطاع أن يقيم أسرة وحده بلا معاونة من أحد، بقدر ما كان حزينا لفراقه كما تحزن أم العروسه يوم فراق ابنتها وإن تزوجت إبن الجيران.

بعد مباحثات قرر فتيحه أن يتزوج رشاد في المقعد المجهز له ثم ينتقل إلى داره الصغيرة بعد أسبوع، ووافق رشاد.

كانت المفاجأة التي أعدها فتيحه لولده رشاد يوم زواجه هي إقامة ليلة كبيرة يغنى فيها الشيخ حسين مجاهد، كانت ليلة تحدثت عنها القرية بأكملها، الشيخ مجاهد كان له صيت كبير في المنطقة بأكملها من المنصورة إلى بنها ومن الزقازيق إلى طنطا، إنه ليذكر هذا اليوم جيدا، فقد انتشر الخبر واستعد أهالى القرية وأهالى القرى المجاورة، فكان الشباب الذي يعمل في القاهرة والمدن الجديدة يرتب يوم الأجازة الأسبوعية على يوم زواج رشاد، وأصحاب المحلات جهزوا أماكن لعرض بضاعتهم خاصة من المشروبات المثلجة.

لم يفوت أصحاب المقاهي هـذا الحدث فأقاموا نصبات قريبة وأقيم المسـرح والنصبات وانتشر أصدقاء رشـاد في البلد بأكملها يطرقـون الأبواب ويطلبـون الكنب والمقاعد وفـي أقل من نصف ساعة كان هناك أمام المسرح ما يكفي لاستقبال مائتي فرد وجلس فتيحـه وأصدقـاؤه في أحـد الجوانب وهنـأه صديـق بزجاجة بيرة أعطاها له خفية.

ترك فتيحـه أصدقاؤه للاطمئنان على سير الأمـور، فقد وصل الشـيخ مجاهد وفرقتـه ودخلوا إلـى المنزل حيـث يتناولون طعام العشـاء أولا، وقف هو على خدمتهم مباشـرة ولِمَ يحرم نفسـه من هذا الشرف؟

بعدها أخـرج المطرب الشعبى مجاهد قطعة «حشيش» وطلب «الجوزة» وجلس يشـد أنفاسـا طويلـة، هذا ما جعـل فتيحه يتجرأ ويخرج زجاجة البيرة ويعرضها على الشـيخ مجاهد الذي ضحك وأخبره أن البيرة للمبتدئين وفقط..

لـم يبالى فتيحه ورفع الزجاجة على فمه كما شـاهد من قبل في أحد الأفلام ولكنه للأسف الشديد وجدها مقززة إلى أقصى درجة بالنسبة له، تذكر كلمة «المبتدئين» التي قالها الشيخ مجاهد، خشى أن يصفـه أحدهـم بتلـك الصفة، يرفـع الزجاجة مرة أخـرى مقررًا ليحتسـيها ويحتسـي معها شـعوره بالقـئ، مظهرا علـى الرغم منه ابتسامة سعادة خرجت إلى الوجود صفراء باهتة.

طلب من الشيخ مجاهد أن يحدثه بشأن استعداده لليلة، ولكن الشيخ ارتدى العمة والكاكولا وخرج مع فرقته مبتسما للجميع وهو يقول لفتيحه:

- تعالى واسمع بنفسك يا أبو العريس.

كانت الساحة أمام المسرح مكتظة بالجمهور من الرجال والنساء والأطفال ولم تكفي المقاعد الأفراد فافترش البعض الحصير الذي حملوه من منازلهم وغنى الشيخ وأثار النفوس ولعب بالعواطف وأبكي ضعاف القلوب وأثار الشجن حيث غنى قصة يتيم وآكل ماله.. والصدفة.. وتدخل القدر في اللحظة الأخيرة.. وفي النهاية البطل أسعد ما يكون..

صمم الأستاذ عبده جار فتيحه أن يحضر الحفل الساهر وحمل مقعد معه رغم اعتراض زوجته حيث أن ثقافته تمنعه من التدنى إلى هذا المستوى ثم وافقت زوجته بعدما عرض عليها الذهاب معه من باب العلم بالشيء، ارتدت عباءتها ولم تنسي أن تتكحل سريعا ثم انتعلت الحذاء أبو كعب عالى وحملت كرسي وذهبت خلف زوجها.

ضحك الأستاذ عبده من قلبه وهو يشاهد فرقة الشيخ الموسيقية وهي تعزف مقطوعة لعبد الوهاب تليها بأخرى لفريد وثالثة لبليغ وهكذا..

فكان اللحن الخاص بالأغنية كلها مقطوعات مشهورة ولم يعزفوا عزفا خاص بهم إلا الوقفات التي تناسب وقفات الأغنية، ولم يخفي على الأستاذ عبده أن يلاحظ ردود الأفعال والانطباعات على أهالي القرية وأكثر ما أدهشه هو هذا الشاب الذي علم أنه أشترى طبق استقبال القنوات الفضائية وأصبح يمتلك وسيلة إطلاع على الثقافات العالمية، ألفاه رغم ذلك ينصت باهتمام ويقف ويرقص ويوارى دمعة إن تطلب الأمر.

في لحظة استغل فتيحه انشغال الجمهور واستغراقه التام مع الشيخ «الصييت» وأشار لسعدية بطرف خفي بأن تتبعه إلى داخل المنزل، فلم يشأ أن يذهب مفعول زجاجة البيرة هباء، كان على يقين بأنها، ما دامت ممنوعة، ذات صلة وثيقة بعلاقته مع زوجته.

بعد دقائق عاد إلى الحفل الساهر الذي استمر حتى الفجر وكان الجمهور في تناقص، حتى أذن الشيخ لصلاة الفجر من فوق المسرح كإشارة لنهاية قصته الغنائية وانتصار البطل.

ينصرف الشيخ وفرقته بعد أن نفحه فتيحه بقية حسابه، يشعر فتيحه بزهو وهو ينظر إلى الساحة الخالية من الأفراد والمسرح وتذكر أن البلد كلها كانت «ملمومه هنا، والبلاد التانيه كمان».

لم يتوجه إلى منزله إنما توجه إلى الجامع ودخل الحمام الذي يحتوى على الدش، كان في قرارة نفسه يدرك أنه سوف يكون

أول من يدخل مباشـرة وإن كان هناك أكثر من شخص، فهم سوف يتيحون له الدخول دون أن يطلب.

ظل فتيحه شـارد اللب ناظرا إلى شـجرة الصفصاف ولم يشعر بالجـرار الذي وقف إلى جواره، مما اضطر السـائق إلى اسـتعمال آلة التنبيه، فاعتدل فتيحه في مكانه وتصنع اللامبالاة قائلًا:

ـ جرى أيه يا صابر دا أنا مستنيك من الصبح يا أخي؟

ـ مـش بالدور يا فتيحه، وفيه كام إسـم قايلين قبلك، وبعدين أنا أصلا مش فاضى، أنا هاخد جره واحده مع المشتل وأمشى.

يقف فتيحه بحدة ويتحدث وهو يحرك يده بعصبية في الهواء:

ـ لأه.. الأرض كلها لازم تتحرت دلوقتي يا صابر.

يتراجـع صابر، يعلم ثـورة فتيحه جيدا، يرسـم الابتسـامة على وجهه قائلا:

ـ طيب تعالى اركب، أهو كله شغل.

يركـب فتيحه إلى جـوار صابر، يدخـل الجـرار الحقل ويعمل المحـراث في الأرض حيث يقلبها رأسـا على عقـب ويثار التراب ويملأ المكان، يحاول فتيحه أن يُسـلى صابر حتى لا يشعر بالملل و«يكلفت» الأرض فيحدثه قائلًا:

ـ بقى بعد ما أبعت لك يجى خمس مرات، تيجي تقولى هاحرت المشتل وجرة واحده في الأرض؟

ـ ما هو لازم تلف وتدور حوالين الماكينة لغاية ما تجيلك.

ـ ليه بقى، هو أنا مش هادفع زي غيرى؟

ـ مصالح يا فتيحه.. مصالح إنت ما تعرفهاش.

يتضايق فتيحه بشده عند سماعه الجملة الأخيرة، يشعر في قرارة نفسه أنه يعلم الكثير، لكنه فضل عدم المجادلة.. وصمت.

ينتهي صابر من حرث الأرض ويترك فتيحه الذي جلس تحت شجرته فترة، حتى وصل محمود إبنه حاملا طعام الغذاء.

محمود في الثالثة عشرة من عمره، له تقاطيع بسيطة يعتنى بها بالرغم من حداثته، دائمًا يصفف شعره، وثيابه نظيفة، أمه كانت تدهش عندما يخلع ثيابه ويضعها في الغسيل، فهي من وجهة نظرها مازالت نظيفة فلم يلبسها غير ثلاثة أيام فقط، تثور تحت حجة أن الثياب ما زالت نظيفة وإن لبسها أسبوعا كاملا، ولا تنتهي المشكلة إلا بعدما يقف فتيحه في وجه سعدية صائحًا:

– محمود يعمل اللي هو عايزه وبعدين إنتى عندك غسالة بالكهرباء.

اهتمام محمود الأول كان الدراسة ثم لعبة كرة القدم. يصل محمود بالطعام لوالده ثم يهم ليترك المكان، يحدثه والده وهو يفتح لفة الطعام:

ـ ياريت أمك تكون عملت حاجه طريه..؟

ـ أيوه هيه كانت مولعه الفرن.. أنا ماشي بقى عايز حاجة؟

ـ إقعد إتغدي معايا.

ـ لأه.. مش جعان..

يضحك فتيحه وهو ينظر إلى ابنه النحيف:

ـ أهـو انتـوا كدا يا ولاد النهـارده، تتلفوا علـى الصابع ومع كده تقولوا مش جعانين، يا بني كُل.. كُل أي حاجة تيجي في سكتك.

ـ احنـا يابـا لسـه موصلنـاش لمرحلة اللـي يلحـق.. الخير أهو كتير..

ـ «مرحلة» ماشي يا أبو مرحلة.. الخير دا بكره يا عالم بيه.

ينصرف محمود معلقا:

ـ خليها على الله يابا.

يتفحص فتيحه الطعام فيجد عيش طرى بالسـمن وطبق قشـدة وجبـن أبيـض وطبـق بيـض بلـدي، فتظهر عليـه علامـات الرضا والسعادة وهو يعلق على جملة ابنه الأخيرة:

ـ (لنفسه) أيه الخير دا كله.. (لابنه) ونعمة بالله يابني.

■ ■ ■

يجهز فتيحه جانب من أرضه لعمل مشتل الأرز، اشترى الكمية اللازمـة مـن التقاوي، التـي وضعها فـي جوال مـن الخيش وربط طرفـه بحبل وألقى بـه في الترعـة وربط الطرف الآخـر للحبل في

جذع الشجرة، شعر فتيحه بسعادة عندما قصده البعض ليربط في شجرته أجولة التقاوي، فكان يقول بسعادة:

ـ اربط.. بس علم شوالك بحاجة وأنا مش ملزم بيه.

في اليوم التالى حمل الجوال من الترعة، وقام بعمل حفرة ضخمة وسط تل من روث الماشية على راس الحقل ليضع الجوال للكمر، تنبعث من قلب تل الروث حرارة ملحوظة، يردم فتيحه على الجوال ويضغط بقدميه على التل كثيرًا ثم يهبط بقدمه التي علقت فيها قطع من الروث، تسأله ابنته مسعدة وهي تقف إلى جواره عن سبب سخونة قلب تل السِباخ، ينظر فتيحه ناحية التل الذي تفوح منه الرائحة والحرارة، دُهش، وقف حائرا للحظات، إنه يعلم طوال عمره أن باطن تلال الروث تحوى حرارة تكاد تشتعل لا سيما إن كانت طرية ولكنه لا يعرف لماذا؟.. فأجاب ابنته قائلًا:

ـ ما هيه سخنه كدا يا مسعده.. وعشان كدا إحنا بنحط فيها التقاوى يوم كامل بليله عشان نكمرها.

لم تخرج إبنته من إجابته بشيء مفيد، فصمتت.

في اليوم التالى فتح الميه على المشتل الذي امتلأ بالماء، ثم حمل قطعة خشب ملساء مربوط في طرفيها حبل قوى جمع طرفيه في يديه وصار يسحب قطعة الخشب «اللواطه» وانطلق بها يمينا ويسارا حتى يسوى الأرض، لكن الخشبة كانت خفيفة، فنادي على ابنته مسعدة الجالسة تحت الشجرة:

ـ تعالى يا مسعدة اقعدي على اللواطة.

ابتسمت مسعدة، فقد كانت تحلم بهذا العمل حيث تجلس وتمسك في الخشبة جيدا والماء يغمر نصفها السفلى، فقالت:

ـ أجيب الحمار يجرها؟

فقال فتيحه بلامبالاة:

ـ لأه.. دا إنتى خفيفة.. هاجرها أنا.

تخلع مسعده حذاءها وتشمر ثيابها وتجرى ناحية الخشبة بسرعة والماء البارد يغمرها فتشعر بانتعاش.

سحب فتيحه الخشبة، ورغم ضألة جسد مسعده إلا أنه كان يسحب الخشبة بصعوبة نظرا لأنه يسحبها فوق طين، توجه إلى الأماكن المرتفعة وما هي إلا دقائق حتى اختفت أرض المشتل تمامًا ولم يعد يظهر سوى الماء وكأنه صفحة نهر..

حوله باقى فلاحو الحوض يجهزون أرضهم مثل.

أتت سعدية بمساعدة محمود ابنها بجوال التقاوى من قلب تل الروث أفرغت ما احتواه في طست كبير، جلست تحت الشجرة حتى ينتهي فتيحه من تسوية المشتل.

بعدما انتهي ارتمى تحت الشجرة بجانب زوجته، وبعد فترة سألها:

ـ ياترى جبتى معاكي لقمه؟

ـ واجيب ليه، ما أنت خلاص هاتبدر التقاوى ونروح على الدار تغير هدومك وتتغدى..

يعتدل في جلسته بانفعال:

ـ دار أيه اللي هانروحها، مستعجله على التلفزيون، قومي يابت هاتى لقمه وتعالى.

ارتجفت زوجته وتحركت بسرعة.. وقف محمود قائلًا:

ـ أروح معاها؟

فأجابه فتيحه بهدوء:

ـ لأه خليك، ها تناولني التقاوى شويه.. بشويه.

■ ■ ■

يوم الخميس بعد العشاء جلس فتيحه وأسرته حول الطبلية الموضوع فوقها بطة بلدي كاملة وصحن مسطوح واسع به أرز وطبق شربه، في الرف بجوار الحائط التلفزيون مفتوح على أحد القنوات المحلية التي تعرض أحد الأفلام.

فتيحه كان له عاده عندما تشمل الوجبة لحمة أو «زفر» فكان لا يعطى أولاده أنصبتهم إلا بعد فترة حيث يأكلون أكبر قدر من الموجود ويصلون إلى حد الشبع، يعطيهم ما تيسر على مرتين، وفي هذا اليوم أعطى الأولاد الجزء الأول وصار الأولاد في انتظار الجزء الثانى من أنصبتهم ..

لحظات وانفتح الباب ودخل جابر، فصاحت مسعده في سعاده:

هيه جابر جه.. جابر جه..

قامت مسرعة تحمل عنه شنطة سفره على أمل أن تجد فيها هدية، تقدم جابر يسلم على والديه ويقبل أيديهم ويحتضن اخوته ويخرج لهم من الشنطة قطع من الهريسة كانت تباع على كوبرى المؤسسة الخمسة بجنيه، يجلس جابر ليأكل وطبعا نال الجزء المتبقى من البطه.

بعد انتهاء الطعام جلس أفراد الأسرة أمام التلفزيون يحتسون الشاي، نظر فتيحه إلى جابر:

ـ خير يا جابر عملت أيه المده دي؟

ـ خير يابا.. أنا الحمد لله بقى معايا قرشين كويسين وعايز أشترى شوية خشب واعمل جهازي.

ضحكت سعدية بشدة..

ـ مش ياواد لما تلاقى العروسه الأول؟!

فقال فتيحه: العرايس كتير المهم الأول.. هاتتجوز هنا والا هاتعمل زي أخوك رشاد؟

صمت جابر لحظة ثم قال:

ـ بصراحة أنا لا هاتجوز هنا والا هاعمل زي رشاد.

شهقت سعديه وقالت:

ـ أمال ناوى تعمل إيه يا جابر؟

ـ هادفع مقدم شقة في المدن الجديدة في مصر وأبقى أسدد الإقساط، بس لما أخطب واكتب الكتاب لان الحجز بقسيمة الجواز.

شعر فتيحه بالانكسار لحظة وخرج ليجلس أمام الدار وحيدا، هو صحيح جابر دائمًا مسافر منذ أن ترك التعليم من تالته ابتدائي، إلا أن فراقه بشكل رسمى ضايق فتيحه، لقد تساهل في أمر رشاد لأنه سيكون بجواره، سندا له وقت الحاجة إليه، الأن فقط شعر بأن رشاد هو الآخر بعيد عنه كل البعد، فأين هو الآن؟

لن يتبقى له سوى محمود، ومن الجائز أيضًا أن يفعلها محمود في المستقبل..

دائمًا جابر يرفض القرية، تذكر فتيحه يوم أن هرب ولده من المدرسة عندما سألته مُدرسة الفصل عن عملية حسابية بسيطة لم يستطع حلها، اقتربت منه لعقابه، نظر إليها بشراسة، ثم قذفها بأسوأ ما سمعته من سب في حياتها ثم قفز من نافذة الفصل إلى الشارع ومنه إلى المعلم سعد والذي أخذه للعمل في البداية مقابل أكله ومواصلاته، بعدها وعد فتيحه بأجر يصل إلى خمسة جنيه في الأسبوع.. ومر جابر بمراحل تطور في المهنة، حتى وصل أجره اليومي إلى خمسة وعشرين جنيها، فتيحه لا يصل إلى يده شيئًا

منه، ترك الحرية لابنه لكنه اشـمئز ذات يوم عندما علـم أن جابر قد أصبح مدخن شره..

مـا كان ينتظـره فتيحه وقتها هـو أن فترة الخدمة العسـكرية هي التي سـتصلح من شـأن ولده جابر، وقد كان.. بـدأ جابر في ادخار مبلغ شهري، وها هو الأن يتحدث عن خروجه من القرية..

يخرج جابر ويجلس إلى جوار والده أمام الدار:

– إنت زعلان ليه دلوقتي يابا؟

– لما تسيبوني واحد ورا التاني.. أفرح؟!

– ما هي دي سُنة الحياه.. وانت سيد العارفين..

ـ مـا فيش منه فايـدة الكلام دلوقتي.. إنت حـر إعمل اللي إنت عايزه..

– برضه بموافقتك..

ـ يـا جابـر يا بني اليومين دول مافيش واحد بيصرف على نفسـه زيك كده وها يستني موافقة من حد.

يصمت جابر لحظة ثم يقف بانفعال:

ـ والله العظيم إن ما وافقت، لأرجع وأقعد هنا إن شالله من غير شغل.

يحاول فتيحه أن يوارى انفعاله وتأثره فيقول:

ـ لأه يا بني عيش حياتك واتهنا.. واهو يبقى لينا مكان في مصر ننزل فيه.

ـ يا سلام.. دا انتوا على العين والراس..

يُخرج جابر مبلغ بسيط يعطيه لوالده:

خد يابا حاجه كدا علشان المدرسة قربت، ومحمود ومسعده عايزين لبس ومصاريف..

ـ فيك الخير.. (مبتسما يوارى لحظة حرج) شفت بقى لما تروح مصر الكلام دا مش هايحصل..

يصمت جابر لحظة، وتطول فترة الصمت ينظر خلالها فتيحه إلى جابر بجسده الطويل المفتول وشعره الأصفر من حرارة الشمس، ثم يتحدث كأنه يتذكر شيء ما فجأة:

ـ ما دمت نويت، يبقى تحافظ على فلوسك وآنى من ناحيتى جوازتك عليا زي أخوك وربنا يقدرنى..

ـ ربنا يخليك يابا.. أنا هاوفر كل قرش لغاية ما أقف على رجليه..

ـ المهم تسيبك من اللبس اللي إنت مضيع فلوسك عليه، اللبس اللي لا طعم ولا منظر.. مداس تلاته كيلو وقميص ينفع فرش كنب وبناطيل زي بتوع العرقسوس.

يضحك جابر بشده، فهذا الحديث يعنى أن والده قد رضى تمامًا وأن قلبه الأبيض الناصع قد ضحك هو الآخر، فأجابه:

ـ ما هيه دي الموضة.

كان كل الحديث السابق وفتيحه لا ينظر ناحية جابر حيث يركن ظهره ويمد ساقيه أمامه، وفي هذه اللحظة اعتدل وتوجه كلية إلى جابر:

ـ هو أنت مفكرنى داقق عصافير يا جابر.. الموضة يابني حاجة كلنا نشوفها حلوه ونعملها، لكن دلوقتي فيه بدل الحاجة ميه، التلفزيون مليان وفي الشوارع برضه الطويل موضة والقصير موضة والواسع موضة والمحذق موضة.. هه الخلاصة انتوا أحرار.

ـ هانعمل ايه يابا.. الأيام دي عايزه كدا ..

ينظر فتيحه ناحية ابنه فيجده قد شخص بناظريه في الفضاء الواسع وعلى وجهه علامات خوف وأسي، يبدو أنه يكرر ما قاله بداخله مرات.. يضطرب داخل فتيحه ويحاول الخروج من هذا الوضع:

ـ هه.. ادخل هات المضغ من جوه يا جابر..

■ ■ ■

منذ أن ركبت مسعدة على قطعة الخشب في مشتل الأرز وقد انتابتها حالة غريبة من الهرش، في البداية كان الوضع بسيط وغير

ملحوظ أما الأن وقد مر أسبوع، فإن الجزء السفلي من مسعدة تعرض من خلال الحك المستمر إلى أورام وبقع وفقاقيع حتى إن مسعدة عجزت عن الحركة من شدة الألم في قدميها وساقيها.

لم يكن فتيحه مقتنع بالوحدة الصحية الموجودة في القرية المَجاورة رغم الدعاية التي تملأ التليفزيون عن مدي التطور التي وصلت إليه الوحدات الريفية حتى وإن كانت حاصلة على علامة النجمة الذهبية، أو حتى خمس نجوم، المشكلة في الطبيب الذي لا يتطور، وليست في الإمكانيات وإن كانت مفيدة أحيانًا..

يرتدي الجلباب الكشمير والشال الأبيض والحذاء ذو الرقبة والأستيك، والطاقية البني الصوف الجديدة، يحمل مسعدة على كتفه بعد صلاة العصر وخلفه سعدية زوجته واستقل سيارة أجرة ربع نقل بصندوق حتى وصلوا إلى الطبيب في «ميت غمر» وبالرغم من أن قرية «الكرامة» تتبع مركز أجا إداريا إلا أنها تابعة لمركز ميت غمر فعليا حيث شملت كافة الاحتياجات والتعليم والتجارة.. إلخ. عموما كان أهل القرية ينزلون ميت غمر لقضاء كافة شيءونهم، ومن بينها العرض على الأطباء..

كشف الطبيب على مسعدة وقال بأن ديدان البلهارسيا اخترقت جسدها عن طريق الجلد، وعندما حكته وصلت إلى هذه الحالة، يكتب الدواء الخاص بالجلد ثم يوجههم إلى طبيب تحاليل لإجراء تحليل بول وبراز ودم، يعودون إليه لكتابة العلاج.

يدخلون منزلهم بعد صلاة العشاء والحصيلة كم من الدواء، والقضاء على المبلغ الذي تركه جابر.. هه.. صلى فتيحه ركعتين شكر لله وقبل يديه وش وضهر، الحمد لله كل اللي ربنا يجيبه كويس، وبعد يومين تماثلت مسعدة للشفاء.

ينمو نبات الأرز في المشتل وكثرت به الحشائش، يتوجه فتيحه وسعديه، ولم يطلب من محمود مساعدته خشية منه وحرصا عليه، محمود رغم حداثته له هيبة في نفوس من يعرفونه فلم يكن من السهل توجيه أمر مباشر له، واقع الأمر محمود لم يكن ينتظر أن تُطلب منه المساعدة، فقد كان يقدم ما يستطيع تقديمه، حيث ينقل أغراض على الحمار أو يحمل الطعام والماء، أقله كان يبقى في المنزل لحراسته.

بكت مسعدة بشدة يوم فرز المشتل وتنقيته من الحشائش لرفض والدها فكرة أن تذهب معهم وبعد إصرار الطفلة وافق فتيحه بشرط ألا تنزل الحقل وأن تجلس تحت الشجرة.

لم يطلب فتيحه من ابنه محمود أن يشاركه العمل في الأرض ولكن محمود ما أن رأي والديه يعملان بمفرديهما في تنقية الحشائش والنباتات الضارة والتي كانت منتشرة بشكل يزيد عن الوصف، حتى خلع ملابسه وشاركهما العمل.

بعدها بيومين كان محمود يشكو من نفس الأعراض التي شكت منها مسعدة في السابق، وحدث مرة أخرى أن ذهب به

فتيحة إلى الطبيب الذي يصرف جرعة للقضاء على البلهارسيا وبعض الأدوية الأخرى، ويعود فتيحه إلى المنزل وعبارة واحدة لا تفارق داخله ولا يعلنها لأحد:

لو كنت أجرت حد يشتغل كان أوفر من كدا، أو كنت اشتغلت أنا زيادة شوية، عموما أهو مكتوب.. والمكتوب مكتوب..

ثم يهز كتفيه ويمط شفتيه ويعود إلى ما كان عليه.

علمت فايزه بمرض أختها مسعدة وكذلك محمود فطلبت من زوجها حجازي أن يرافقها لبيت والديها..

هناك وبمجرد وصولها أخرجت من بين ثنايا ثيابها بعض البيض البلدي ووضعته في حجر أمها.

فايزة لا تتميز بجمال لأن صدأ الإهمال قد علاها، ولم تُثرها الغيرة من نساء التلفزيون يومًا ما، لأن حجازي ببساطة كان أسوأ منها حالا، لكنها كانت صاحبة شخصية قوية بالمنزل نظرا لحسن رأيها وقد صاغت حماتها رأيها في فايزه ذات يوم «بنت شاطره.. وطيبه كمان» لم تترك بيت زوجها غاضبة في يوم ما، لأنها قادرة على حل مشاكلها، وإن تطور الأمر وأصبح فوق طاقتها ذهبت إلى والديها وكأنها زيارة عادية ولا ينكشف الأمر إلا بوصول حجازي ليأخذها إلى المنزل هي وطفليها، فيبتسم الوالدان ولا يعلقان.

في يوم زيارتها هذه نظر إليها فتيحة طويلًا، وقال في نفسه:

ـ الأيام بتجرى، وآهي فايزه كبرت واتجوزت وخلفت كمان.

من كام سنه فاتت كانت فايزه في عمر أختها مسعدة.. تذكر يوم أن أرسلتها أمها سعديه بالطعام إليه في الأرض.. كان يومًا شديد الحرارة، فايزه تعاني من التهاب في عينيها زاده إعمال يديها المتسخه، وبينما كانت تسير على الطريق إلى جوار الترعة والشمس تضرب مباشرة في عينيها دون أن تستطيع مقاومة «دعك عينيها».. لم تشعر بنفسها إلا وهي في الترعة، غاصت إلى أسفل ولم تجدي محاولة خروجها أي نفع..

و لأن فايزة لم ينته عمرها بعد.. فقد مر صابر بالجرار ونظرا لارتفاع صوت الجرار لم يسمع أي صوت من محاولات فايزه في الماء ولكنه شاهد فقعات الهواء في الترعة وحركة مريبة، فأوقف الجرار وقفز إلى الماء..

حمل صابر الغريقة إلى الطريق صارخا مناديا على فتيحه وكل من في الجوار، في لحظات تحلقوا حوله وهو يضغط على بطن فايزة، يخرج الماء، تعود إلى الحياة مرة أخرى، كل هذا مر في أقل من دقيقتين تقريبًا..

ظلت فايزة تبكي وهي تحكي ما حدث لوالدها الذي تحرك بداخله عواطف لا يدري كنهها بالضبط إلا أنه حمل فايزه على كتفه وانطلق بها إلى المنزل ووضعها على الحصيرة في الصالة وهرولت ناحيتهم سعدية، ولكن فتيحه لم يعطيها الفرصة لتعرف ماذا حدث. هجم عليها ليفرغ جام غضبه.

لم يتركها إلا بعد أن أوسعها ضربا، وفهمت سعدية الموضوع من بين الكلمات التي كان يلحقها باللكمات، لم تعلق بشيء وأخذت ابنتها في أحضانها باكية.

هبط المساء وعادت الحياة إلى طبيعتها، تمسحت فيه سعدية بعينها المتورمة:

- ربنا سترها ورحمنا، ارحمنا أنت بقى يا سي فتيحه..

نظر إليها فتيحه بشجن وهو يوارى دمعة حاولت الفرار منذ أن شاهد فايزه ملقاة على الأرض تحت يد صابر، ولكن هذه الدمعة تحجرت حتى هذه اللحظة وهو يجيب زوجته:

- البت كانت هاتروح مننا يا سعدية.. تسيبيها تطلع من الدار وعنيها بالشكل ده؟

- ما جاش في بالي حكاية الترعة دي خالص.. ويعنى أنا هاكون عارفه وابعتها..؟.. خلاص بقى.. هه.. أنا هاقوم أدبح للبت فرخه..

ويتظاهر فتيحه بأنه يجفف أثر هذه الدمعة الفارة بينما يوارى شبح ابتسامة رقصت على خلايا وجهه قائلًا:

- طب خليها بطه بقى..

كل هذه الذكريات مرت برأس فتيحه وهو ينظر إلى فايزه اليوم وقد أصبحت زوجة وأم، زوجها حجازي الذي يعمل في دق الطلمبات طيب أكثر من اللازم، فهو هاديء دائمًا وإن كان هذا

الهـدوء نابع مـن عدم فهمه لبعـض الأمور فيوافق هـوى من أمامه باسـتمرار بابتسـامه عريضـة.. بلهـاء.. شـخصيته تلك مـا جعلت شخصية فايزة تطغى، لـم تخبره حتى بأمر البيض الذي حملته معها كهدية حال دخولهما لزيارة اخوتها المرضى.

■ ■ ■

فـي اليوم التالى لم يسـتطع محمـود التحرك مـن مكانه، جرعة الحبوب المضادة للبلهارسـيا كانت شـديدة عليه، غرق في عرقه، تجلس أمه إلى جواره وهي تحاول حبس دموعها مظهرة شيء من التماسـك متمثلة في ذلـك بزوجها الذي قالت عنه، لنفسـها فقط، ذات مساء دافيء لذيذ:

- فتيحه جوزي أسد.. في كل حاجه.

كانت سعدية تشعر بأن موقعها لدي فتيحه أقل بكثير من موقعه هـو عندها فرضاءه بها كان رضاء المغلوب على أمره، لكنها كانت تكـن لـه «مَعـزة» وقلبهـا كان يخفق بشـدة عندمـا تتخيـل أنها من الممكـن أن تفقـد فتيحه للأبـد، كان هذا الإحسـاس ينتابها حالـما يتوفي أحد رجال القرية تاركا زوجة وأولاد.. فكانت تدعو الله أن يحمى لها زوجها..

ـ يارب اجعل يومى قبل يومه..

باستمرار تخشى الحياه بعد فتيحه فتهمس لنفسها:

ـ كفايه عليا حِسه في الدنيا..

الإرهاق الظاهر على إبنها محمود ذكرها بالهموم، لم تتماسك فبكت بلا توقف.

الحقيقة أن قلب سعدية لم يكن جافا أبدا، لكنها كانت تشعر بالحرج الشديد من التعبير عما يدور بداخلها، تعلم جيدا أنها «تحب» فتيحه حب لا يوصف وبالرغم من أن التليفزيون جعل مثل هذه التعبيرات مألوفة إلا أنها كانت تخشى من سخرية فتيحه نفسه، غضبها الدائم من فتيحه نابع من خشيتها هذه، فهو لا يتيح لها الفرصة أبدا للتعبير عن مكنونها حتى في أدق جزئيات حياتهم شفافية، تلك اللحظة التي تذوب فيها كتلة الشحم بين يدي فتيحه، لم تستطع أبدا التفوق عليه حتى بالكلمات، كانت «تناوشه» وتتمنع للثأر من جبروته الجميل.

فتيحه يعلم أن سعدية تريد أن تمارس حرية أكثر في التعامل معه لكنه كان يخشى أن يفلت الزمام من يده فكان يقف لها بالمرصاد فتُحرج هي وتصمت حتى لا يتطور الأمر..

لم تنس يوم أن داعبتها رغبة في أن «ترقص» لفتيحه في حجرة النوم وظلت قرابة السنة تدرس الأمر وتمنع نفسها، إلى أن فاض بها الكيل وفي ليل شتاء والحجرة دافئة بشكل يثير المشاعر ذابت سعدية ولم تستطع التحكم في مشاعرها فوقفت في وسط الغرفة إلى جوار السرير وما أن بدأت في الرقص حتى تغير وجه فتيحه وهو يعقب «عيب على سنك» فأسلمته جسدها وهي شاردة الذهن.

علـى أن فتيحـه لم يكن صاحـب القلب الجاف أبـدا هو الأخر لكنه على حد تعبيره هو «أنا زي سـجرة الكافور أخضر طول السنة بـس بشـرط..» وكان يصمـت شـاعرا بالحيـرة لا يسـتطيع التعبير بالكلمـات عمـا يعتمل في داخله من انفعالات ثم يضيـف «بشـرط تكون الدنيا لونها بمبى» ثم يبتسم في سكينه .

■■■

لـم يكـن أمام جابر فتاه بعينها، لذا ترك الأمر لأمه التي خرجت بعد يومين من شـفاء مسـعدة ومحمود وجلسـت أمام الدار تعصر ذهنها وتفرز بنات البلد بنت بنت، فكانت تتخيل نفسـها أمام منزل فـلان ثـم تقول «لأه الـدار دي مافيهاش بنات علـى وش جواز، أو البنـت اللي هنا ما تنفعشـي» وبعد نصف سـاعة من الفرز حصلت علـى مجموعة تصلح للزواج فدخلت إلى فتيحه تخبره بالأسـماء التي وقع عليها الاختيار فيضحك فتيحه معلقًا:

- يا وليه هما دول ينفعوا برضه؟

- وأيه اللي يقل نفعهم؟

- دول علامهم عالى.. وابنك ما أخدش الابتدائية..!!

- كلـه محصل بعضه وبعدين أنا لا أعرف عالى ولا واطى وفيه كتيـر زيه نجاريـن وحدادين متجوزيـن أبلوات، اللي بيسـأل على العريس في الأيام دي بيسأل على حاجه واحده بس..

- وأيه هي بقى يا أم العريس؟

- هايقدر يسترها ويعيشها ولا لأه؟

- إنتوا أحرار.. واللي تختاروها وتوافق، أروح أخطبها لجابر.

بدأت سعدية الخطوات العملية، ذهبت إلى الأفضل من وجهة نظرها فقد كان المقياس لديها هو الأدب والجمال مجتمعين وقوبل طلبها بالرفض المقنع أكثر من مرة:

- البت لسه عليها بدرى.

- لسه من كام يوم جاى ليها واحد دكتور وأبوها ما رضيش وقال تكمل علامها..

- إنتى عارفه يا أختى إن أختها اللي فوق منها مخطوبه ولسه بنجهزلها.

- لأ يا أختى إحنا سمعنا إن إبنك عايز يتجوز ويعيش في مصر إحنا إيه بقى اللي يجبرنا على المرمطة دية؟

كانت سعدية تستمع إلى كل هذه الردود وتعود إلى فتيحه وجابر مخفية هذه الأقوال لتحسن الصورة، وبعد محاولات من رسم الابتسامة على وجهها تقول:

- لقيتها بت صغير.

- دي شعرها فوق ودانها.

- دي هاديه والقطة تاكل عشاها.

- بتقول ما باعرفشى أعجن.

- دي بقى بتقول ما باعرفشى أطبخ.. هيء..هيء.. بنات آخر زمن.

وهكذا حتى وصلت إلى الفتاة التي تحتل ذيل القائمة وهي أميرة إبنة أخيها.. سعدية لا تفضل زواج الأقارب ولكنها بعدما فشلت في الحصول على سواها اضطرت لإختيارها على مضض، فلابد أن تجد عروسة لجابر في أسرع وقت وإلا تسوء سمعتهم في البلد كلها وتقل هيبة فتيحه وولده، فقد كان لدي أسرة فتيحه شعور داخليا لم يتم التعبير عنه في يوم من الأيام وهو أنهم من كبار العائلات في القرية، حتى أن فتيحه نفسه لم فكر أكثر من مرة في أن يتقلد منصب العُمدية.

أميرة بنت حلال وطيبة وآهي بنت أخويا ويبقى زيتنا في دقيقنا وخيرنا ما يروحش للغريب.. لم يظهر فتيحه أي رفض رغم ضيقه الشديد، الأهم عنده رأي جابر الذي وافق فعلًا..

ضيق فتيحه من هذه الزيجة نابع من عدم ارتياحه لشقيق زوجته «فاضل» والد أميرة، الذي قال عنه في هذا اليوم:

- فاضل عامل نفسه أبو العريف وهو ما بيعرفشى الألف من كوز الدره وطوالى ماشي في سكة الخسارة لولا إن ربنا بيسترها معاه على أخر لحظة عشان خاطر رزق البنات، ولولا كده ماكانشى لقى حق الدخان..

- يا خويا إحنا هناخد البت وخلاص، وآهي ماشيه مش قاعده..

- أنا مش باقول على البت قاعده ولا ماشيه، أنا باقول على أخوكي اللي عامل عامل نفسه فتك، كدا هايجى هنا ويقعد ويتكلم، ومش هاخلص بقى..

شردت سعدية بفكرها، فتيحه لا يزور أهلها أبدا ولا يأتون هم لزيارته، عدم الارتياح واضح بين الطرفين، زواج جابر من أميرة سوف يجبر الطرفين على تجديد العلاقات..

ذهبت سعدية لمنزل أخيها فاضل تطلب يد أميره لجابر.. تذكرت هذه اللحظة منذ ثلاثين عاما تقريبًا، يوم أن كانت هي «سعدية» العروسة، شعرت بنشوة غريبة وهي تتذكر هذه اللحظات..

في استعراض من زوجة أخيها أخذتها إلى حجرة ابنها البكر، لم تشاهد سعدية في الحجرة سوى المرآة، وقفت أمامها تشاهد نفسها.. تتأمل سعدية اليوم وتقارنها بصورة باهته لسعدية منذ ثلاثين عام..

- كلفتنا خمس آلاف جنيه.. أصلها عموله.

- المرايا؟

- لأه.. أوضة النوم كلها..

- هانعمل لجابر وحده زيها ويمكن أحسن منها شوية.

- يا أختى بس اعملوا إنتوا زيها..

لم تسمع سعدية الجملة الأخيرة من زوجة أخيها، زمان كان عندها مرآة، لم تكن بهذه الروعة ولكنها كانت تفي بالغرض بعد زواجها بعام كُسرت المرآة نادرا ما كانت ترى نفسها، اليوم نظرت.. فاشمئزت.. رفعت الطرحة بسرعة من فوق كتفها توارى بها شعرها القصير الخشن النافر من تحت رباط الرأس فزعت سعدية حينما رأت بعض شعيرات بيضاء متناثرة وكأنها تراه للمرة الأولى.

فجأة وكأنه لم يتبق من الزمن غير سويعات، دبت فيها الروح.. خرجت مسرعة، تهرول في شوارع القرية، تنظر نحو الأرضى كي لا تتلاقى مع إحداهن فتوقفها لتثرثر معها، دخلت إلى منزلها، فتيحه زوجها في الحقل ومحمود خارج الدار ومسعدة تشاهد التليفزيون..

دخلت سعديه إلى مطبخها مباشرة، ولعت على شوية ميه ووضعت فيها نصف كيلو سكر من بتاع التموين وعصرت كام ليمونه مع الحرارة تحولت إلى سائل لزج.. يتماسك مع الغليان، وهي تراقبه تشعر بالدهشة.. سنوات طويلة لم تقدم على مثل هذه الخطوة، لم تفكر في نتيجة إهمالها ذاتها لحظة ما، كل ما كانت تفكر فيه هو أن ذلك قد يضايق فتيحه..

- واشمعنى النهارده؟ (سألت نفسها)

لأنها تحتاج إلى ذلك فعلًا.. إنها في حاجة إليه، في حاجة إلى لحظة تشعر فيها بذاتها، ثم إن ما تفعله هذا.. تفعله الأخريات.. فلانه أكبر منى وبتعمل ووشها بيلمع ولا عروسه يوم دخلتها.

خشيت سعديه من فشلها في إعداد المادة المطلوبة.. قالت لنفسها:

- أي حاجه المهم أعمل اللي ما عملتوش من سنين..

بعد دقائق طفت النار، حملت ما صنعته إلى داخل حجرة نومها، انتظرت حتى هدأ تمامًا، خلعت ثيابها كاملة أعادت إحكام إغلاق الباب، أخذت قطعة صغيرة من «الحلاوة» السائلة ونقلتها بين أصابعها مرتين أو ثلاثة حتى يبست قليلًا ثم بدأت تعمل بمهارة وتزيل هذه الطبقة التي تراكمت بفعل السنين على جسدها، لم تترك سوى شعر رأسها وخط دقيق فوق عينيها..

كان العرق يسيل منها بغزارة وكأن مسام الجلد كانت مسدودة، سحبت طرف الملاية من فوق السرير وجففت عرقها، شعرت بقواها تخور، فقد بذلت مجهود وحبست الصرخة أكثر من مرة، تخيلها لنفسها بعد الانتهاء جعلها تتحمل وتغالى، تمنت مروحة صغيرة إلى جوارها، طلبت من فتيحه أكثر من مرة أن يشترى مروحة ولكنه أجاب:

ـ دي بتجيب العيا هو فيه أحسن من الهوا الربانى ..

لـو كانـت تذكرت قبـل البدء، كانت اسـتلفت مروحـه من عند الجيران شـوية، كان عليها أن تتماسـك في الحجرة المغلقة تمامًا، اسـتلقت على أرض الحجرة يسيل منهـا الماء من شـدة الإرهاق أغمضت عينيها.. ذهبت في سِنة من نوم..

بعد دقائق.. جمعت أشيائها وارتدت ثوبها المتسخ القذر «على العـرى» وفتحت باب الحجرة خارجة إلى الصالة، شـعرت ببرودة الهـواء الذي يداعبها من تحت ثوبها، ابتسـمت وحملت الماء من الطلمبة في وسط الدار ودخلت إلى دورة المياه ومعها ثياب نظيفة فيها شـيء مـن الزهزهة، جلسـت فـوق مقعد صغير من الخشـب بـدون قطعـة ملابس، ونظـرت إلى الماء بخشـية وسـعادة، رفعت الـدورق وصبـت الماء وكادت تصرخ من شـدة الألـم ولكن لطف المـاء معها وهـو يداعب ثناياها ويتخلل مسـامها جعلها تعدل عن ذلك.. استخدمت الصابون مرتين أو ثلاثة حتى انتهي الماء..

سـعدية في هذه اللحظة كانت من أسعد المخلوقات على وجه الأرض وصممـت ألا ترتـدي ثيابها إلا في حجـرة النوم وأن تلف جسـدها وشـعرها بالفـوط كما تشـاهد فـي التليفزيـون.. حاولت لف الفوطة على جسـدها أكثر من مرة ولكنها فشـلت، فلم تستطع تثبيـت الفوطـة إلـى جانـب أنهـا صغيـرة الحجـم، فوضعتها على رأسـها ولفت جسـدها بثيابها وحملـت طرفي الثوب بين أسـنانها فانكشـفت عجيزتيها فقالت في نفسـها «مش مهم دول كام خطوه لغاية الأوضه» المشكلة لديها كانت في مسعدة الجالسة في الصالة

تشاهد التليفزيون.. نادت عليها بصوت مرتفع خشن، ثم توقفت وأردفت بصوت ناعم هادىء فيه أنوثة:

- بت يا مسعده.. روحى لأبوكي الغيط..

- ليه يا أمه؟

- قولي له أمى عايزاك دلوقتي.. عشان حاجه مهمه..

تفرح مسعدة وتخرج.. تستغل سعدية الفرصة وتدخل إلى حجرة النوم وترتدي قميص نوم تفصيل من قماش أصفر.. بعدها تذبح بطة وتتركها على النار، ثم تدخل وتمشط شعرها المبتل، تحمل الماء من الطلمبة إلى دورة المياه وتجهز الليفة والصابون والثياب النظيفة لزوجها.

يأتي فتيحه والدهشه تعلو وجهه، فقد سأل ابنته أكثر من مرة في الطريق:

- أمك عايزه أيه يا مسعدة؟

- وأنا أيه اللي عرفني..

تخيل فتيحه ألف سبب، لم يرد فيهما السبب الحقيقى، علته الدهشة وهو ينظر إلى وجه سعدية.. نعومة.. لمعان.. إحمرار دائم، والماء من شعرها يبلل رباطه، وتفوح منها رائحة الصابون والماء البارد..

- سي فتيحه.. ادخل استحمى..

- ليه؟

- جهزت لك الميه والغيار..

- هي القضية في الميه والغيار؟؟

- بس ادخل على ما أخلص تجهيز الغدا.. أصلى دبحت بطه..

يضحك فتيحه وقد فهم الأمر، لم يستطع تخيل ما يحدث، إلا إنه نفذ وأطاع في هدوء وخلع ثيابه وهو يتذكر وجه سعدية ويبتسم:

- بعد ما شاب ودوه الكتاب.. ما حدش يكره النضافه برضه..

تقاطر الماء على جسده وعلقت فوق كتفيه بالذات قطرات ماء تلمع تحت ضوء المصباح.. ارتدي ثيابه وخرج مناديا زوجته، فألفاها تتحدث مع مسعده:

- تروحى عند أختك فايزه وتديها الفلوس دية وتقولى لها أمى بتقولك اشترى الحاجات اللازمه واعملى صنية بسبوسه.. وتفضلى هناك يا مسعده لغاية أختك ما تخلص وتجيبيها وتيجي..

ضحك فتيحه ودخل حجرة النوم، وجد الصينية وبها الطعام على أرضية الحجرة الرطبة.. من النادر أن يشعر فتيحه بما يشعر به الآن.. الشمس بالخارج ملتهبه، البرودة تفوح من جسده ومن جسد سعدية، الحجرة باردة أيضًا، الطعام له رائحة تملأ خياشيمه، جلس أمام الطعام وأكل من البطة وشرب من الحساء ما استطاع وجلست أمامه سعدية تأكل بدلال وتطعمه قطعة بعد قطعة وفتيحه ضاحكا:

- جرى أيه يا سعدية.. إحنا هانعيده تاني؟

- وأيه المانع يا سي فتيحه..

ضحك فتيحه من أعماق قلبه على سعدية وهي تخرج الكلمات من فمها بنعومة وأنوثة ودلال وتناثرت حبيبات الأرز من فمه وشرق وقالت سعدية متصنعة اللهفة على فتيحه زوجها:

- اسم الله عليك يا حبيبي.

صمت فتيحه لحظة وتغيرت الدنيا أمام عينيه وترك بقايا الطعام في يده، لقد سمع كلمة إن أقسم أهل الأرض له على أنه من الممكن أن يستمع إليها من سعدية لكذبهم جميعًا..

لكن سعدية الأن شعرت بأن أنوثتها تفور وتحتاج إلى من يسقيها، لم تنتظر ولم تترك فتيحه في حيرته ودهشته وسحبت طرف الملاية مرة ثانية ومسحت يدها وفمها وأمسكت يد فتيحه وفمه وبطرف الملاية ومسحتهما أيضًا وبيدها اليسرى أبعدت صينية الطعام قليلًا واقتربت من فتيحه في أنوثة طاغية لا توصف وجبروت المرأة عندما تريد ودلال أذهل فتيحه نفسه:

- يا وليه إحنا كبرنا على الكلام دا..

- فشر.. دلوقتي هاتشوف إحنا كبرنا ولا لأه..

■■■

يستيقظ فتيحه من النوم على صوت المؤذن لصلاة العصر وإلى جواره سعدية تنظر إليه في حنان، كانا الاثنين عرايا، وصينية الطعام مازالت في جانب على الأرض وقطع الثياب متناثرة ورائحة العرق ممزوجة برائحة الصابون تفوح في المكان.

نظر فتيحه إلى جسد سعدية الخالى من الشوائب التي كان قد عهدها، يراه اليوم كأنه يراه للمرة الأولى، خشى أن يكون في حلم..

كل هذه المتعة كانت إلى جوارة، كل ما في الأمر هو إزالة الغبار عن الذهب، كثيرًا ما لا نرى الذهب في حياتنا، رغم ضعف ما عليه من غبار.

جلست سعدية استعدادا للعودة إلى الواقع مرة أخرى لكن فتيحه رفض الخروج من هذا الحلم.. فضحكا معًا بسعادة وبراءة وغابا في قبلات وأحضان لا نهاية..

■ ■ ■

تسلل قرص الشمس بنصفه السفلى خلف منزل مرتفع في طرف القرية وبقى النصف الأخر يرسم قبة دموية مرتفعة فوق سطح المنزل.

يخرج فتيحه منتشيا وجسده مبلل بالماء، يجلس أمام المنزل تاركا الهواء النظيف البارد المار على مشاتل الأرز ومائها يحرك دفة أفكاره، يفكر في شبابه المنبعث وحيويته..

لقد أثبت، وبكل ثقة، أنه يحتوى على حرارة الشباب، الحقيقة أن فتيحه لم يستنفد في حياته الأولى كل طاقاته فكثيرًا ما كان يبتعد عن زوجته، لم تكن هذه الحرارة شغله الشاغل أو مثار حديث بينه وبين صديق، إنما كانت مجرد عادة، اليوم أصبحت شيئًا آخر، فقد عاد الوعى، وقال والابتسامة ترقص فوق شفتيه:

- سعدية طلعت بنت أبالسه بصحيح.. أيه يا خويا اللي عرفها الحاجات دي بعد العمر دا كله؟

- التلفزيون يا فتيحه.. فيه فيلم حلو تعالى..

قالت سعدية هذه الجملة وهي خارجة تحمل صينية عليها كوب شاى وعليها أيضًا قطعتين من البسبوسة وكوب ماء مثلج، فقد أرسلت مسعدة في طلب قطعة من الثلج من عند الجيران فهي تعلم أن لديهم ثلاجة ثمانية قدم، بعدما نظر إلى ما تحمله عقب:

- لأ.. الهوا هنا جميل.. اقعدي هنا جنبى..

- في الشارع كده (ضحكت وتدللت)

- وأيه يعنى.. ما إحنا كل يوم بنقعد جنب بعض وفي الشارع برضه.

- النهارده غير إمبارح.. (بدلال أكثر).. هادخل أتفرج على الفيلم.

يأخذ فتيحه قطعة بسبوسة ويتذوقها، فيجدها لذيذة الطعم فيأكل القطع كلها «ناصحه يا بت فايزة».. ثم يرفع كوب الماء

المثلـج ويقضي عليه دفعة واحدة تهب نسـمة بـاردة وتزيل طرف الشـال الأبيـض من فوق كتفه الأيمن.. يشـاهد أسـراب أبو قردان العائدة إلى مساكنها.. هبط جزء من الظلام.. يرتفع صوت المؤذن ينادي لصلاة المغرب..

منـذ فتـرة طويلـة كان أبو قـردان لا يفـارق الحقل وقبـل أن تلد سعدية ابنتيهما مسعدة بسنة تقريبًا، اختفي أبو قردان، واختفي أيضًا الغراب والحدأة وطيور أخرى كثيرة كانت تنتشر في السماء وذلك منذ أن كثر استعمال السموم والمبيدات للمحاصيل الزراعية، هذه المـواد التـي تعد كارثة لحقـت بالفلاح منذ أن اسـتغنى عن زراعة القطـن بزراعـة الخضـروات، لـم تنقـرض الديـدان ولكـن «ولاد اليومين دول بقوا منظرع الفاضي وكلهم أمراض» لم يشـعر فتيحه بسالم جاره في الأرض إلا وهو واقف أمامه:

- أهلًا يا سالم.. اقعد .. تشرب شاي؟

نظر فتيحه إلى كوب الشـاى بجواره فألفي نفسـه قد شربه بينما كان شاردا..

- لأه.. إنت ما جيتشي تصلي المغرب في الجامع ليه؟

لـم يجد فتيحه ما يقوله، لقد شـرد خلف أفكاره ونسـي الصلاة تمامًا «منها لله سعدية» قالها في نفسه وهو يوارى ابتسامة ثم يقول:

- يعني.. أنا.. خير يا سالم؟

- مالك يا فتيحه؟.. انت كويس؟

- كويس قوي يا سالم؟ خير؟

- أنا هاقلع المشتل بكره.. وانت؟

- إنت بادر قبلي بيومين..

- مش هاتفرق، عشان نطفي الأرض سوا نأجر مكنه سوا إحنا أرضنا مقاس واحد.

- ماشي.. نقلع بكرة..

■ ■ ■

تابعت سعدية الفيلم دقائق ثم شردت فيما حدث اليوم وفتيحه «اللي زي الأسد» الجالس في الخارج شاعرا بأنه سيد زمانه.

تعجبت سعدية من خمولها، تذكرت الشعيرات البيضاء في رأسها، الأيام أسرع مما تتخيل، لماذا تترك الحياة الحلوة تنسال هكذا من بين يديها؟ أهو زهد أم كسل؟؟

تأوهت سعدية على نيران الخجل، الدم يكاد يخترق وجنتيها والعرق يرطب جسدها بأكمله، تحسست وجهها وصدرها وتمنت أن تستدعى فتيحه من الخارج مرة ثالثة.. ولكن خدر بسيط وتنميل سرى في جسدها فتثاءبت بقوة.

خلاصة ما كانت تفكر فيه ألا تدع الأيام تمر دون حدوث هذا الأمر ولكن بشيء من التنظيم..

في هذا اليوم نامت سعدية قبل فتيحه، بالرغم من أن فتيحه صلى المغرب والعشاء بالمنزل ونام.. ولم يستيقظ فتيحه قبل الفجر كعادته.

■ ■ ■

يستيقظ فتيحه مع أشعة الشمس الأولى، تناول إفطاره وتوجه إلى الحقل مباشرة، كان من المفترض أن يذهب ليلة أمس إلى الست «أمونه» رئيسة البنات العاملات في الناحيه للإتفاق معها على المجموعة اللازمة لتقليع الشتلات وعملية الشتل نفسها، أمونه سيدة مسنة لا تعمل بيدها ولكنها مسئولة عن عملية التنظيم ومقابل ذلك تحصل على عمولة جيدة تكفيها شر السؤال بقية العام..

الفتيات والسيدات العاملات في القرية يتوجهن إلى أمونه لتوزعهن على الحقول وفقا لاحتياجات كل حقل، بسبب الإقبال الشديد على أمونه فإنها وفتياتها مشغولات دائمًا ليومين أو ثلاثة مقدما، ولما كان سالم وأسرته سوف يقومون بالعمل بأنفسهم، فلم يطرح موضوع أمونه مع فتيحه ليلة أمس، فتيحه نفسه كان شارد الذهن ولم تخطر أمونه له على بال ولا الأرض كلها..

في طريقه للحقل يشاهد أمونه تجلس تحت ظل شجرة وفتياتها يعملن أمامها ويغنون بصوت جماعي:

يا ابو جلابية مزهرة..

يرمح يطير في المندرة..

جاب لى الدولاب باربع درفات..

يرمح يطير في المندرة..

جاب لى السرير باربع عواميد..

يرمح يطير في المندرة..

أصغـى فتيحه للفتيات لحظات، يبتسـم من تلـك الميوعة التي تصاحب الكلمات التي تحتوى على إيحاءات وغمزات، تغنين بها ويضحكن مع تراشق بشتلات الأرز ورش الماء. يقترب من أمونه، ينحرف إليها قائلًا:

- كويس إنى لقيتك يا أمونه..

- خير يا فتيحه؟

- عايز خمس أو ست بنات..

- إمتى؟

- دلوقتي..

- وانت عارف إن دا ينفع يا فتيحه؟

- طب إمتى أمال؟

- بعد بكرة بعد صلاة العصر..

يتركهـا فتيحـه ولا ينهي الاتفـاق معها، يصل إلـى حقله، يخلع جلبابـه ويكومه في يده ويحشـره بين فرعى الشـجرة ويترك حذاءه تحت جذعهـا، ينزل إلى حقله ويجلس في المشـتل متربعا ويغمر المـاء أسـفله، يبدأ العمـل بمهارة وإتقان، يمسـك بيده شـجيرات الأرز في شكل حزمة على قدر يده ثم يجذبها بشدة وبخبرة بحيث تخـرج من الأرض دون أي خسـائر فـي الشـجيرات أو جذورها، يجمـع كم منها في حزمة واحدة ويتركها خلفـه في الماء وهكذا.. كان هـذا العمل الذي استغرق فيه فتيحه يتطلـب خمس عاملات علـى الأقـل، لكـنه صمم على أن ينجزه وحده، ومن بعيد شاهدته «أمونه» وهو يعمل فقالت في نفسها:

ـ الراجل دا غريب وشديد وباين عليه دماغه متركبه شمال..

وصلت الشـمس إلى منتصف السـماء، أناس كثيرون هربوا من حرارتها إلى رطوبة منازلهم، أما فتيحه لم يشـعر بذلك قط، يتذكر ليلة أمس وسـعدية، لـم يسـتطع أن يترجم مشـاعره، فقد اضطربت دقات قلبه واحمر وجهه خجلا:

– ولاد العشرين ما يعملوش كدا يافتيحه..

يصمت لحظة ثم يمط شفتيه معقبا:

– الله.. مش حقى وحلالى..

يشعر فتيحه بأن الابتعاد قد بلد مشاعره، لكن الاقتراب له لذات أخرى، داعـب الماء نصفه السفلى، ابتسـم في سعادة المراهق:

- يخرب بيتك يا سعديه صحيح النسوان قادرة، حتى لو شعرها ابيض..

لم يشعر فتيحه بأن النهار قد انتصف إلا مع سماع صوت المؤذن لصلاة الظهر، خرج من أرضه وجلس تحت شجرة الصفصاف وعلى بعد أمتار يجلس جاره سالم وأسرته يتناولوا طعام الغذاء:

- ما تيجي يا فتيحه تاكل لقمه ..

- عشت يا سالم.. زمان سعدية جايبه الأكل..

- مش كنا زرعنا حاجه تانيه بدل الغرسة في الطين كدا؟

- مش دا اللي الحكومه عايزاه..

- ويعني الرز هايجيب أيه؟ أنا كان نفسي أزرع قطن زي زمان.

- زي زمان؟.. عايزنا نرجع زي زمان قول للزمان ارجع يا زمان على رأي الست..

- يا ريتها بالقواله يا فتيحه..

- آخر مرة زرعنا فيها القطن، حصلت حاجة ما نعرفش أيه سببها خلت شجرة القطن لا فيها ورقة ولا لوزة وأجدعها فدان ما جابش قنطار..

- إنت هاتقولى، ما هو من يومها ماحدش عنده جرأه يزرع القطن ولا يجيب سيرته..

- ألا تفتكر أيه السبب يا سالم؟

- البذرة ما فيش غيرها..

- طب والحكومة ما توفرش بذره كويسه ليه؟

- والبذرة اللي ودتنا في داهية كانت جايه منين؟

- والعمل؟

- الرزق على الله.. وأدينا هانزرع الرز.. جاب فلوس أهلًا وسهلا ماجابش يبقى العيال ياكلوه..

تصل سعدية حاملة صينية بها طعام فاخر وقد تركت طرف الطرحة ينزل فوق عينيها ومنتصف وجهها، حتى يقال أنها تتقى حرارة الشمس ولكنها فعلت هذا خجلا، فما فعلته بالأمس قد غير وجهها بشكل ملحوظ فقد انتشرت البقع الحمراء كأنها ملسوعة بالنار، وسيدات القرية، ورجالها أيضًا، لا يخفي عليهم سبب هذه البقع، اتقت شر كل ذلك وتركت طرف الطرحة ولم ترفعه إلا عندما وصلت إلى زوجها، جلست جاعلة ظهرها تجاه سالم وأسرته..

نظر فتيحه إلى سعديه وتأملها في سعادة وقد اشتعل داخله من شدة اصراره على عدم افصاحه عن مشاعره، كسرت سعدية حاجز الصمت:

- لقيت الأكل هايبقى تقيل على مسعدة، قلت أجيبه أنا..

- أيه اللي عملتيه إمبارح ده؟

تورد وجه سعدية ونظرت إلى الأرض في دلال:

- هو كان غلط؟

- لأه.. دا حقنا وحلالنا.. بس أنا قصدي كان فين من زمان؟ وليه دلوقتي بالذات؟

لم يلحظ فتيحه زوجته وهي تتحسس شعرها من أسفل الطرحة ثم تقول:

- كل شيء بأوان..

■ ■ ■

بعد يومين كان فتيحه قد انتهي من تقليع الشتلة من أماكنها وحجز ماكينة مياه للرى لمدة ست ساعات كي يطفيء الأرض والماكينة كثيرًا ما كانت تتعطل أو تتوقف لنقص الماء في الترعة التي كانت تعاني من ضغط شديد عليها، فكان ذلك سببا لأن ينتظروا حتى ما بعد منتصف الليل حتى يتاح الماء، كان جميع الفلاحين يعانون من نفس المشكلة فقال أحدهم ذات مساء:

- كنا دقينا ماكينة مُعين؟

- أي والله ولا الحوجه للترعة..

وانتهت القضية عند هذا الحد لأن الموسم سينتهي بعد أيام وينسي الفلاحين المية حتى الموسم التالى..

أجـر فتيحـه، فرحات الأقـرع الذي يمتلك حصـان وباب قديم يسحبه الحصان على طين الأرض ويحمل على هذا الباب شتلات الأرز وينشرها في بقية أجزاء الأرض، يقوم بتحميل الشتلات على البـاب فتيحـة وسـعدية زوجته التـي ربطت جلبابها حول وسـطها وتركـت أخر قديم مدلـى حتى صفحة الماء، وحتـى يأتي فرحات بالحصـان يجـر الباب كانت تسـتريح جالسـة بنصفها السـفلى في المـاء غير مبالية بلدغات ديـدان الماء، وعندما يأتي الحصان تقف لتحميل الشـتلات فوق الباب، وهنا يلتصـق الثوب مهما كان لونه وسـمكه بجسـدها معبرا بدقة عن شـتى تفاصيل جسـدها واستمر العمل حتى توزعت الشتلات في الأرض بأكملها.

بعـد العصـر أتـت أمونـه بفتياتها وتمـت عمليـة الشـتل كاملة بنظـام ودقة يفوق ماكينة الشـتل التي اسـتأجرها البعض في القرية المجاورة.

بـعــد أســبوع تقريبًـا كان فتيحه يذهـب إلى حقلـه كي يروى (يُملى) حقله وأتاه الرجال تحت شجرة الصفصاف..

- خلاص يا فتيحه اتفقنا ندق ماكينه معين، واللي هايشترك فيها يدفع نص أجر واللي مش هايشترك يدفع أجر كامل.

- (يفكـر فتيحه لحظة) الصح بقى إن اللي يشـترك ما يدفعشـى خالص لإن بالشـكل اللي بتقولوا عليـه هايبقى أنا أول واحد يقول أدفع حق ساعة بساعة أحسن من دفع مبلغ كبير على بعضه..

ينظرون إلى بعضهم البعض:

- عنده حق يا رجاله.. ياما قلت له يمسك العمديه..

يضحك فتيحه بشدة وهو يشير نحوهم:

- عمده عليكم انتوا يا مغفلين؟

يضحكون وتتلاقى أكفهم في سعادة ويعلق أحدهم:

- وماله.. وتبقى انت كبير المغفلين..

بعد لحظات تهدأ الضحكات، يتحدث أحدهم عائدا إلى الموضوع:

- خلاص.. هيه هاتتكلف عشر آلاف جنيه والحوض بتاعنا حوالى أربعين فدان، يبقى على الفدان حوالى 250 جنيه..

- طب وحق الجاز والزيت وواحد لازم يقف عليها ويشغلها؟

لا يجد إجابة، يصمتون لحظات، تتلاقى أنظارهم عند فتيحه يحثونه على التحدث:

- نعمل صندوق وكل اللي يدور ساعة من المشتركين يدفع خمسين قرش واللي مش هايشترك يدفع تمن الساعه كامل وبكدا هانقدر نكون مبلغ للجاز والزيت واللي هايقف عليها كمان..

هبت نسمة صيف على الجمع الذي قال في نفس واحد:

- توكلنا على الله.

■ ■ ■

بعـد الانتهاء مـن دق الماكينـة المعين.. تزوج جابـر من أميرة، الفرقـة أتت مـن القاهرة، أخبـر جابر أبيـه أنها نقطة مـن صديق له والحقيقة أن جابر دفع ألف جنيه للفرقة وتصوير الفيديو..

فتيحه أرسـل في طلب الإضاءة واسـتعار مقطـورة جرار صابر وجعلهـا بعرض الشـارع أمام المنزل وفرشـها بحصيـرة وأركانها بملايات وفي الخلفية بطانية ماركة النمر وجريد النخل والبالونات حول المسرح وبدأت الفرقة..

خبط ورزع وتنطيط لغاية الفجر الأطفال يتابعون مصور الفيديو ويذهبون أمامه يمينا ويسارا يتابعون صورهم على شاشة التليفزيون الموجود في جانب المسرح..

أهـل القرية والوافدين مـن القرى المجاورة انصرفـوا بعد فترة بسـيطة فقد كانت ثمة شائعة قد انتشـرت «فرح وفيه فرقة من مصر ومعاهـم رقاصـة» ومع الوقـت ظهر الإرهاق الشـديد علـى جابر وأميرة..

قبل الفرح بأسـبوع أثيرت قضية الطباخ وفتيحه رفض وسـعدية أقسـمت علـى أنها لا تريـد الراحة ولكنهـا تريد الطبـاخ مثل فلانة وعلانة، اشمئز فتيحه وتذكر والدته وهو يتحدث إلى سعدية:

- الطباخ بيوفر في الأكل عشان نفسه دا غير إنه بيقعد والستات حواليه هما برضه اللي بيطبخوا..

انتهت مهمة فتيحه حيث ضيافة الأقارب والأصدقاء والطعام والحلويات أكثر من اللازم حتى إنه جمع كل الأطفال ووضع أمامهم الكثير من بقايا طعام الكبار.

بعدما انفض الجمع جلست سعدية إلى جوار فتيحه:

- الحمد لله الأكل كفي وفاض، بس بيتهيألي إن فيه ناس ما أكلتش.

- أنا مش في الأكل، أنا في الخبط والرزع اللي جاب لى صداع.

- أهي ليلة يا خويا.. بس عارف.. مش زي ليلة رشاد..

- هي ليلة رشاد هاتتعوض أبدا، خلاص الشيخ حسين مجاهد تعيشى إنتى ولو كان لسه عايش كنت جبته تاني أحسن من العيال دي..

عمال الإضاءة يحملون أدواتهم، وجابر وأميرة صعدوا إلى الغرفة فوق السطوح ومقطورة صابر عادت إلى سيرتها الأولى..

هذا اليوم هو يوم سعدية حقًّا، لكنها كانت تتمنى من أعماقها أن تتاح لها الفرصة وترقص حتى تقع من طولها ولكنها لم تجرؤ على التصريح بأمر كهذا وتمنت أن يدعوها فتيحة للداخل مثلما حدث يوم فرح رشاد ووقتها تفعل ما تشاء مستغله هدوء فتيحه الذي يقرر «أهي ليلة وتعدي» ولكن فتيحة لم يفعل فقد كان متوترًا.

لم يخف على نساء القرية التغير الذي طرأ على سعدية فجأة حيث اهتمامها الزائد بنفسها ولكنها تجاهلت التعليقات أو كانت ترد بكلمات قبيحة تجعلهن يصمتن في دهشة..

ذهب فتيحة لصلاة الفجر، قابلة الرجال في الجامع بنظرات غامضة غاضبة ولسان حالهم يقول:

- فرقة ومسخرة يا فتيحه.

فقد بدأت تنتشر في القرية أقوال تحرم كل ذلك، شباب أطلق لحيته وارتدي الجلباب الأبيض القصير وقلد نفسه وصيا على أهالى القرية الجهلاء، يحرمون عليهم كل ما لا يتناسب مع رغباتهم، رغم إن أفراح مثل هذه تحدث في منازلهم ولا يستطيعون منعها، مما قالوه عن فتيحة ليلة أمس أن الفرقة الآتية من مصر:

- كلهم شاربين خمره.

لم يبال فتيحه. يعرف جيدا طباع أهل قريته، الذم طبعهم وإن أتتهم الفرصة سيفعلون أكثر وأكثر.

جلست سعدية على حافة السرير منتظرة عودة فتيحة من صلاة الفجر لتبشرة..

- إبنك راجل من ضهر راجل..

لا يجيبها فتيحة ويبتسم في إرهاق ويلقى بجسده فوق السرير..

- (بدلال) هو انت هتنام يا راجل..؟

سـمعت صوت أنفاسه المنتظمة.. عضت على شفتيها ونظرت إلى سقف الحجرة..

■■■

في اليوم التالى انتشر الخبر بسرعة فائقة:

(صـدر قـرار مـن الحكومة بإعـادة الأراضـي إيجـار قديم إلى أصحابها)

- هما كل يومين يتكلموا في الموضوع دا؟

- تخاريف يا عم.. مين اللي هايسب أرضة؟

- دا إحنا لينا عمر فيها وعايشين من خيرها..

- هما مش بياخدوا الإيجار؟ عايزين إيه تاني؟

- الثورة قامت للقضاء على الاستعمار والإقطاع.

- أيوه الكلام دا في كتب المدرسـة حتـى بالأمارة: تلاته قضاء وتلاته إقامة.

- كدا يبقى تنويم..

- طب والعمل؟

- ادفع الإيجار الجديد والأرض تفضل معاك..

- كام؟

- بسعر اليوم.. ألفين للفدان في السنه..

- يا سنه سوخه.. ألفين ..

- وهايزيد مع الأيام..

- ليه؟.. هو الفدان هايجيب كام ألف؟

- دا خراب بيوت..

- لا وانت الصادق دا عمار بيوت.. بيوت الإقطاعين..

- طب وهيه ناقصة عمار؟

- يا سيدي البحر يحب الزيادة، وبعدين دي بلدهم وهما أحرار فيها..

- طب وإحنا نروح فين؟ وناكل منين ونعيش ازاى؟

- تلاقيها إشاعات..

- ولو إشاعات.. ممكن يطبقوها..

- يا عم دي البلد تولع..

- أكتر من كده..

- ولا هاتولع ولا حاجة.. وبكرة تشوفوا..

مـرت عدة شـهور وقرية الكرامـة التابعة لمركز أجـا هذا حالها والحـوار الدائـم يدور حـول هذه القضيـة، حتى الذين لـن يتأثروا لأنهم اشتروا الأرض من زمن طويل

- أيام ما كان سعر القيراط مائه جنيه دلوقتي القيراط بقى بثلاثة آلاف وأكثر..

هذا يعني أن من آراد الشراء عليه أن يوفر قرابة الثمانين ألف جنيه «يا خبر أسود» قالها فتيحه في سره ذات يوم.. رأس مال فتيحه إن هو باع الجاموسة وبنتها والعجلة والحمار والتليفزيون حوالى ستة آلاف جنيه فقط لا غير.. يضحك فتيحه بيأس..

قالوا في البلد إن المستأجر إذا آراد شراء الأرض الموجودة تحت يده سوف يحصل على تخفيض، حسبها فتيحه بعد الخصم، وجد أن عليه أن يدفع سبعه وخمسين ألف جنيه، ضحك حتى بكي..

انتشرت في القرية حالة من الركود والخمول، حالة من الاشمئزاز العام القلق سيطر عليهم.. امتلأ المسجد..

- طبقوا القرار الجديد في الحته الفلانية..

- وأيه اللي حصل؟ الناس عملت أيه؟

- ولا حاجة..

- وهيعيشوا منين؟

- هايشتغلوا باليومية زي زمان..

- وترجع الترحيلة من تاني..

- طب وشباب النهاردة هايقدروا على كدا؟

- خلاص يتعلموا صنعه..

- وهما الصنايعيه عادوا لاقين شغل؟

- يبقى هايمدوا ايديهم..

- سيبها لله..

- ونعم بالله..

تمر الشهور ويأتي موسم حصاد محصول الأرز، ذابت الفرحة في الأعماق علت الوجوه علامات اليأس.. آخر زرعة في الأرض..

يحملون المحصول ويخرجون من الأرض كمن يحمل قطع أثاثه ويخرج من منزله إلى الشارع، الجميع بلا استثناء قرروا الاحتفاظ بمحصول الأرز هذا العام..

- الولاد ياكلوا فيه لغاية ما نشوف أيه اللي هايحصل..

- وهايستلموا الأرض إمتى؟

- لا ها تأجر ولا هاتشترى يبقى سيبها وخلاص..

- هو أنا لو عندي السبعين ألف جنيه كنت قعدت في البلد؟

- طب وها تعيش فين وتسيب دارك وأرضك..

يضحك من أعماق قلبه «داري وأرضي؟؟»..

- آه بس لو أعرف هايخدوا الأرض يعملوا بيها أيه؟

- هايبيعوها..

- لمين؟

- فيه ناس هاتشترى.. ومن البلد..

- يـا عم هي الناس لاقيه تاكل، لما تقولى بلدنا فيها ناس معاها الألوفات دي كلها وهايشتروا بيها أرض كمان؟

- أيوه فيها..

- زي مين؟

- زي حموده رزق..

- ودا جـاب الفلـوس منين؟ دا طالع من البلـد مش لاقي أجرة السكة لغاية مصر..

- اشتغل حلاق حريمي وسمى نفسه حمو، وعارف مين كمان؟

- مين؟

- الشيخ خميس..

- نعم؟ ودا جاب الفلوس منين؟

- صنايعى وبيشيل شغل..

- ما البلد كلها صنايعيه وبيشيلوا شغل؟

- يا سيدي دي أرزاق..

- وحمو وخميس ليهم في الأرض عشان يشتروا.. وبالملايين؟

- مالهومش.. بس عايزين يبقى عندهم طين وخلاص..

- كان أصحـاب الأراضي عايشـين في مصر فـي مناصب، وما يعرفوش عنها حاجة، والنهاردة يقوم اللي يشـتريها حمو وخميس اللي مايعرفوش يمسكوا الفاس منين؟ وإحنا نبقى في الشارع؟؟؟

- مغفلين.. زي ما قال فتيحه..

- تقصد مين؟

- إحنا طبعا.. لو سيبنا حاجه زي دي تحصل..

- وإحنا في أيدينا أيه يعنى؟

- كتير.. بس نبقى إيد واحده..

- وهو فيه مغفلين يبقوا إيد واحده؟!

- يا سيدي نتلم ونختار كبير يشور علينا..

- وتفتكروا مين يكون كبيرنا ده؟

- أيه رأيكم في فتيحه فرج.. دا أكتر واحد بيحب أرضه..

- اتلـم المتعـوس على خايب الرجـا.. دا فتيحـه ده أكبر مغفل فينا.. دا ممكن يضيع نفسه ويضيعنا معاه..

- نهايته.. أنا سمعت طراطيش كلام..

- بخصوص أيه؟

- بيقولوا إن اللي أرضه هاترجع لمالكها الحكومة هاتعوضه..

- إزاي؟

- هاتديله أرض بنفس المقاس في الصحرا..

- بقى اللي عنده كام قيراط يسيب الدنيا ويروح الصحرا.. ياعم خلى الكلام معقول.. وبعدين إحنا لاقين ناكل عشان نروح نصلح في الصحرا وكام قيراط..؟؟

هبط الليل وغرقت القرية في ظلام دامس.. انقطع التيار الكهربائى وفتيحه يجلس أمام المنزل غير مبال بريح الخريف المحملة ببقايا من أوراق الشجر.. رحل جابر وزوجته..

حرق أصحاب الأراضي الجدد قش الأرز في الأرض، حتى تستفيد الأرض أو للتخلص من رائحة الزمن الماضى.. غرقت القرية أكثر في الظلام وسحب كثيفة من الدخان..

أتى رشاد وزوجته وأولاده لزيارة والده وعند خروجه دس مبلغ من المال في جيب أبيه، وحملت فايزه بيض وسمن عندما أتت لزيارة أمها.

دخل فتيحه غرفته وأغلقها، وبكي للمرة الأولى في حياته، كثيرًا ما مر بأزمات، لكنه اليوم يواجه مشكلة انهيار أساس البناء بأكمله، اليوم فقط شاهد الهوان قد تجسد.. رشاد يعطيه مبلغ من المال !!

الحالة لم تصل إلى التسول بعد محصول الأرز يكفي عدة أشهر..

للمرة الأولى يشعر بأن ما يعطيه له أولاده هو حسنة أو صدقة، صحيح كان يأخذ من قبل، لكنه كان يأخذ لأنه يستطيع أن يعطى، أما اليوم فمن أين له هذا العطاء..

يبكي فتيحه كطفل، كيف يدبر مصروفات محمود ومسعدة حتى يكملان تعليمهما وزواجهما، لم تكن عادة فتيحه أن يفكر في المستقبل، اليوم كان الإختبار الحقيقى لإيمانه.. هل سيتغير نظام حياته..؟

أم يستيقظ قبل الفجر ويذهب إلى الجامع وينتعش ببرودة الماء.. يصلى يعود إلى الدار وينادي زوجته التي تقدم له شيء يشق به ريقه ويشرب كوب الشاى وينادي على مسعدة لتأتى له «بمجمع المضغ».. وينطلق إلى الأرض.. أي أرض؟؟

كان يذهب حتى في الأيام التي لا تحتاجه فيها الأرض ويجلس تحت شجرة الصفصاف، شعر بقيمة كل شيء في حياته الماضية التي افتقدها تمامًا، مفردات بسيطة كانت في مجملها فتيحه نفسه، حتى مجرد الجلوس تحت شجرة الصفصاف أصبح اليوم من المحال.. تأبى نفسه الذهاب إليها أو حتى المرور بالقرب منها.. وإن فعلها سينظر إليه الجميع بعين الشفقة.. تخيل نفسه يمر بالقرب من أرضه ليمتع نظره بها إلا أنه لن يتحمل فيسقط على الأرض مغشى عليه.

علم أنهم سوف يقطعون شجرة الصفصاف لإدخال الجزء المقامة عليه ضمن المساحة المزروعة، بكي فتيحه من أعماق قلبه، رشاد أقام معركة مع المالك الجديد للحصول على الشجرة المقطوعة، فهو زارعها.

كانت سعدية تحاول بشتى الطرق أن تسرى على فتيحه، تذبح ذكر البط تستحم بالماء والشامبو الذي أرسلت لشرائه من الأجزخانة، البيت باستمرار نظيف.. و.. و.. قلب فتيحه انكسر.. ياخدوا حتة منه ويتركوا له معشوقته، الكلام لا يفيد يا فتيحه «أخدوا الأرض وقطعوا الشجرة، وبعتوا نصيبك اللي دفعته في الماكينه المعين»..

تغير فتيحه جدًّا في الشهور القليلة التالية وظهرت عليه علامات الكبر فجأة وتساقط عدد لا بأس به من أسنانه، كانت من الأساس بالية لكنها كانت تقاوم حبا في الحياة، التصق خداه وذبلا، لم يجرؤ أحد على دعوة فتيحه للعمل بالأجر اليومي «عنده ربنا يخلى بدل الراجل تلاته يصرفوا عليه..».

فتيحه شعر أنه فعلًا كان يحبها من أعماق قلبه، إنها نبع حياته الأول والأخير لم يكن يعترف بأنه يحب، الأن يبصم بالعشرة بدل المرة عشرة بأنها معشوقتة وأنه على استعداد أن يفنى حياته من أجلها.. لم يتمرد أحد من القرية على إعادة الأرض، حتى من كان يُنتظر منهم ذلك لم يفعل، وتمنى فتيحه أن يستدعيه أحد ليتمرد

وإن حدث سوف يفعل وبقوة، المسألة عنده البداية وبمجرد أن يبدأ يفعل مالا يفعله أحد..

محاولات محمود المهذبة ذهبت سدي، فلم يكن يدرك حقيقة العلاقة بين والده والأرض، كان فتيحه يشعر في قرارة نفسه بأنه فإني وعندما يصل إلى هذه الجزئية يتمنى من أعماق قلبه أن يدفن في أرضه، لم يعبر عن مشاعره هذه لأحد من قبل، أفنى جسده في هذه الأرض ولابد وأن يفنى تحت طينها بعد مماته..

لم يتخيل يومًا أن شيئًا مثل هذا قد يحدث.. قالوا طلعوا القمر صدق قالوا فيه أقمار صناعية وكمبيوتر ودش وانترنت مصمص شفتيه وبرضه صدق، قالوا الأرض هاترجع للاقطاعين تاني لم يصدق..

في أحد الأيام تقرر أن يذهب فتيحه لأحد المنازل في القرية ليوقع على التنازل وكافة الحقوق وأن العقد بينه وبين المالك لاغي..

يجرجر فتيحه جسده حتى يصل إلى هذا المكان، المالك جالسا في صدر الغرفة وأمامه الأوراق.. كان أبشع مخلوق شاهده فتيحه على وجه الأرض..

بالطبع كان المالك يتصرف بسعادة الحاصل على كنز عرف مكانة ولكنه استحال الوصول إليه، ثم في لحظة واحدة يهبه أخر

هذا الكنز، يقف فتيحه في مدخل الحجرة لا يستطيع التقدم خطوة واحدة..

ابتسامة المالك تحولت إلى سلاح خفي موجه إلى صدر فتيحه، نظرات شعر فيها بالشماتة وكأن المالك يقول:

- قرب وابصم يا جربوع.. قرب يا فتيحه يا حثالة أنا المالك مهما حدث..

تأذى فتيحه جدًّا من نظرات المالك، تمنى من قلبه أن يأتيه من ينقذه من هذا الموقف حتى وإن كان ملك الموت نفسه، أشار الجالس إلى جوار المالك قائلًا:

- فتيحه..

ابتسم المالك أكثر..

- قرب يا فتيحه..

تقدم فتيحه خطوة واحدة، خطرت له فكرة مفاجئة «إن كان يتمنى أن ينقذه ملك الموت، فلماذا لا يترك المكان ويرحل؟».

شعور خفي جعله يتقدم مركزا عينية مباشرة على المالك، عينيه، جبهته العريضة.. رقبته البيضاء.. تقدم خطوة أخرى..

ملك الموت يقبض روحه ويرمل مسعدة وييتم أولاده.. تقدم خطوة أخرى شعر بدوار وقدماه تخور..

- تبصم؟

- أمضى..

يعطيه المالك القلم والأوراق.. قلم فاخر من الذهب الخالص اشتراه المالك خصيصًا لهذه المناسبة، لم يتخيل فتيحه أن يمسكه في يوم من الأيام..

- إمضى يا فتيحه.. مش فاضين..

تأمل فتيحة القلم لحظة.. خارت قواه أكثر.. أطبق على القلم بشدة يستعين به، وعينه على رقبة المالك البيضاء ذات الثنايا.. كاد أن يسقط على الأرض أراد أن يتعلق بشيء.. تمنى أن يأتيه ملك الموت..

دفع يده الممسكة بالقلم الذهب بكل ما أوتى من قوة ورغبة في التخلص من الحياة..

■ ■ ■

خرج مرافق المالك مهرولا صارخا:

- الحقونا.. الحقونا..

تمت

رضا سُليمان

الكرامة 2004

اللوحة الثانية
مطلب كفر الغلابة

ســــؤال

متى يكون خير هذه البلاد لأولادها جميعًا ..؟!

متى تكون هناك عدالة في التوزيع..؟!

متى يشبع من يمتص دماء الغلابة؟!

متى يعيش الغلابة؟!

■ ■ ■

إلى الغلابة من أبناء هذا الوطن..

هذا الوطن وطنكم أنتم..

اعملوا من أجله..

في حياة كل إنسـان، تقريبًا، سـر خطير يخصه، لا يبوح به لأحد مطلقًا وربما يصل به الأمر ألا يبوح به حتى إلى نفسه..

«معـوض عبد الفتـاح» من ذلك النوع الذي يحمل سـرًّا خطيرًا خاصًّـا به، لكن صمته لم يكن بالشـكل الأمثل أبدًا، فدائمًا يُشـعـر مَن يجالسـه بأن لديه ما يخفيه عنه ومـا هي إلا لحظات حتى يبوح بسـره إليـه، ولكنه لا يفعـل، فيجعل مَـن أمامه يسـخط عليه، لكن ليس السخط الذي يجعله يفقد الأمل في معرفة سر معوض، فيظل يتحين الفرص..

كان ذلـك معـوض.. الجالـس هنـاك يلقـى بحجـر صغير يشـق صفحة الهواء المشبع بالماء حتى يستقر وسط ماء النهر صانعا دوائر تتسع رويدًا رويدًا لتصل إلى صخور الشاطئ فتتكسر على أعتابها..

غابـت الشـمس خلف السـحب الكثيفـة التي تثير فـي القلوب أحيانًا انقباضا ما، يهطل المطر مبددا السـحب الضبابية التي تغلف المكان..

يتوارى معوض بين نتوءات الصخور التي نتجت عن نحر الماء علـى مر السـنين، محـاولا الابتعاد قـدر الامكان عن مـاء المطر.. يسـتمر الوضـع مـدة طويلة مما جعـل الأمل في تحسـن الأوضاع ينهار داخل الصدور فآثرت الغالبية العودة إلى أوكارها..

يظـل معـوض قابعـا فـي مكانه غيـر عابئ بمـا يـدور حوله من تفاصيل الحياة، يشعر في داخله بقلق واضطراب، لا يعرف السبب في ذلك فيزداد قلقه، ألقى بنظره إلى الفضاء متوجسـا خيفة، طوال سـنوات عمره الماضية كان يَصدق حدسه.. سـلبًا أو إيجابًا، اليوم غلبه قلقه فألهب داخله مما زاد تخوفه من غده.

مرت سـاعة حتى خف المطر واسـتطاعت الشـمس أن ترسـل شـعاعا مبددة به قطعة صغيرة من سـحابة غير داكنة، يهبط الشـعاع إلى الأرض كقضيب ذهبي في يد أحد ملوك الأساطير.

ساعدت قطرات المطر الخفيفة المتواصلة، بعدما سقط الشعاع الشمسى على صفحاتها، على إظهار قوس قزح بألوانه الخلابة..

أعاد معوض الحركة، فقذف حصاة إلى صفحة النهر وظل يتابع دوائر الماء تداعب ريم وطحالب أحجار «الرأس»..

لقد أُتفق على تسمية ذلك الجزء الصخري من الشاطئ المتوغل فــي النهر بـــ «الرأس» وباستمرار كان الماء ينحر فيـه ليأكله، لكن صخوره كانت أقوى، فبقيت على مر الزمن.

شـعر معـوض عبد الفتـاح، أخيرا، بشـيء من البـرودة حملتها إليه رياح شـمالية وليدة تشبعت من ماء المطر حينا، ومن ماء النهر المنزلقـة فوق صفحاته حينا آخر، وقف ليغادر المكان.. ضم كفيه ونفخ فيهما بشــدة في محاولة لاسـتجداء الدفـء، يلقي نظرة عامة على النيل بتعاريجه وانسحابه وهو يتلوى منصرفا شمالًا.

في هذا التوقيت من كل عام، شـهر فبراير، تنحسر المياه بشكل ملحـوظ فيمـا يُطلق عليـه «السـدة الشـتوية» حتى إن الجـزر التي تتوسـط النهـر تظهر بوضـوح وتنمو أعشـابها بكثافـة، فتهبط إليها الطيور المهاجرة وعلى رأسـها أبو قردان الذي يتخذ من شجيراتها بيوتا يأوي إليها ليلًا. أحيانًا كانت هذه الأعشاب، لطراوتها، تغري بعض فلاحي المنطقة بالذهاب إليها بماشيتهم لترعى في كلأها..

تـرك معوض أطراف أفكاره على أعتاب المكان، واتخذ طريقه مغادرا، شـاهد قـوس قزح يحتضـن المنطقة بأكملها، فسُـر بذلك كثيـرًا، فقلمـا كان يشـاهد هـذه الألوان في السـماء، إنـه حتى هذه اللحظة، رغم بلوغه سـن السـتين، لا يعرف أن لهذه الألوان اسـما يطلق عليها.

يخطو معوض أولى خطواته منحنيا كما الراكع.. فلم يعتدل في وقفته لأنه كان يمثل حال وقوفه قوسا، ظهره منحنى دائمًا..

منذ أكثر من عشرين عاما ومعوض راكعا بسبب حادث أصيب فيه، يوم أن سقط من فوق النخلة، لحظة أن ثبت قدميه بشدة في نتوءات جذعها وقد تعلق بيده اليسرى في جريدة وعملت يمناه، التي تحمل منجل صغير صدأ، بنشاط لقطع سباطة البلح، بعد عدة ضربات سريعة متلاحقة هوت سباطة البلح، التفت ليقطع أخرى، لم يشعر بنفسه إلا وهو يطير في الهواء وكما ذكرت زوجته «نفوسة» يومها لنسوان القرية في جلسات النميمة اليومية:

– هو لولا إن الأرض تحت النخلة كانت منديه ورطبه، كان عاش بعدها؟ ربنا رحمه وهو ما يستاهلش.

حملت جملتها أكثر من معنى، فتارة تلقيها بمعنى أن الله شمل معوض برحمته وتمصمص بشفتيها، وتارة بمعنى أن معوض كان يستحق ذلك لبخله الشديد الذي جعله لا يستأجر «متولى» عامل النخيل بالمنطقة مقابل جنيهًا واحدًا.. ثم تشهق بشدة معقبة:

– دا انشف من الحجر..

لازم معوض الفراش أياما.. ذهبوا به للمجبراتى أكثر من مرة، وانتهى الأمر عند الأطباء الذين أعلنوا أن ظهر معوض لن يعتدل بعد اليوم وسوف يعيش بقية حياته راكعا..

سـخط معوض بشـدة على كل أشـجار النخيل، واسـتأجر من يقطـع النخلـة الوحيدة المزروعة عنـد رأس الأرض القبلية.. تلك النخلة التي سقط من فوقها..

كانـت هـذه الإصابـة سـببا فـي العديد مـن المشـكلات لدى معوض سـيما علاقته بزوجته، فلم يكن هذا الأمر لا يحدث بينهما البتـة، إنما كان معوض يتحايل لتحقيقه مـرة بعد مرة، وإن لم تكن النتيجـة بالشـكل المرضى لـه أو لزوجته التي ما كانـت تجاريه في ذلـك إلا لإرضائه حتى لا تتحمل ذنبـا عظيما إن هي رفضت، كما أخبرها الحاج بركات شيخ الزاوية..

أما عن رغبتها كأنثى لها غرائز، فالحقيقة أنها لم تكن ترغب في مثـل هذا اللقاء مطلقًا مع معوض «الجامد» سـيما بعد إصابته التي كانت تجعل من هذا اللقاء وقتا للعناء والجهد.. ولكنها في النهاية ألفت محاولاته المستميتة والتي تشبه محاولات الديكة الصغيرة..

يترك معوض مكانه ويتجه إلى أعلى نحو طريق الجسر الموازى للنـهـر، حيث الارتفاع الشـديد لمسـافة تقرب من العشـرين مترًا، تحتـاج لصعودها إلـى مجهود مضاعف، ونظـرا للارتفاع وتقوس ظهر معوض الذي يعوقه عن الحركة الطبيعية، فكان يلقى بجسـده إلى الأمام حتى يحفظ توازنه..

يصـل إلى الطريق الذي جعله يشـاهد الجانـب القبلى من قريته الزاحفة على الأراضى الزراعية.. يتأمل لحظة.. شـاهد البقعة التي

أضاءها شعاع الشمس الهابط إلى الأرض. كانت البقعة المضاءة هي التي تقع فيها «البئر المباركة» كما يطلق عليها هو وعائلته من قبله على امتدادها، أما البقية من أهالى القرية والقرى المجاورة فيطلقون عليها اسم «المطلب».هذه البئر تقع في قلب أرض معوض مباشرة.

يشاهد شعاع الشمس الذي كاد أن يتوارى خلف قطع من السحاب الداكن فرقصت على وجهه ابتسامة عريضة، هامسا بصوت مبحوح:

– فينهم يشوفوا البركة اللي نازلة من السما عشان يصدقوا..

توارى قرص الشمس.. لا يجد معوض ما يتابعه من مكانه، يتخذ طريقه هابطا منحدر الجسر باتجاه أرضه..

سار خطوتين.. لم يشعر بنفسه إلا وهو في الهواء.. فقد انزلقت قدمه على ذلك الانحدار الذي تحولت قشرته إلى طين لزج بعدما تشبعت واختمرت بماء المطر..

سقط معوض على ظهره، حاول الاعتدال فانزلق مرة أخرى، بحث عن أي شيء يتشبث به فلم يجد.. فشلت محاولة نشب أصابع يده في الأرض، نظرا لكونها طينية خرجت مع أصابعه.. تدحرج عدة مرات حتى وصل إلى قاع المنحدر..

سكن مكانه لحظات ليستجمع أنفاسه ويراقب.. لم يشاهده أحد لخلو المنطقة، لم يشعر بأي ألم.. كل ما جد عليه هو أن هيئته علاها طين كثيف لطخ ثيابه أكثر مما كانت..

عبأ صدره بالهواء الرطب، يعتدل واقفا، ثبت قدميه في طين الطريق بشدة، ينطلق جاعلا بقايا «الفاخورة» القديمة عن يمينه وشجرة الجميز المعمرة عن يساره..

أطلال الفاخورة.. تلك التي جعلها الأطفال قبلة لهم، يختبئون منه داخلها حالما يُسرع خلفهم لإبعادهم عن منطقته..

حتى «شفيق» ابنه الوحيد كان دائم الهروب منه، يختفى داخل هذه الفاخورة أو يتسلق شجرة الجميز، يجلس فوق أبعد مكان حتى لا تصيبه قطع الحجارة التي يقذفه بها والده..

يسير معوض على ذلك الشريط الضيق الذي انحرف يمينا ليصل إلى الجزء الجنوبي من القرية، عند منتصفه اتخذ جهة اليسار بين شجيرات تنمو على جانبى الممشى الضيق، حتى يصل إلى أرضه التي لا تزيد مساحتها عن خمسة عشرة قيراطا هي كل ما ورثه عن أبيه عبد الفتاح، لكن الإرث الحقيقى لم يكن في هذه القراريط بقدر ما كان في تلك البئر التي تتوسط هذه الأرض.. حقيقة الأمر كان «المطلب» ثروة يحسده عليها الجميع..

وصل إلى البئر.. رنا إليها بإعجاب شديد وحنان طاغ، هبط عبر صخورها القليلة الصغيرة، حتى اقترب من بؤرتها التي تحتوى على الماء القليل الذي لا يزيد عن مقدار دلو واحد..

في المياه القليلة الراكدة، شاهد معوض صورته باهتة مهتزة عندما انحنى ليغترف منها ويغتسل من أثر الطين العالق به منذ انزلاقه عند المنحدر.

صعد فوق الحجارة مرة أخرى، ألقى نظرة حانية على البئر، كأم تنظر إلى رضيعها النائم.

ذابت أشعة الشمس تمامًا، تجسدت السحب قباب كثيفة، هطلت الأمطار بغزارة هذه المرة، اهتزت صفحة الماء في البئر لتصنع شكلا أقرب إلى قرص النحل الشمعي..

توجه إلى الكوخ الذي أقامه بالجوار.. كوخ صغير مكون من القش وبعض أخشاب الجازورينا وبطبيعة الحال لم ينحن معوض للدخول من بابه الصغير..

انحرف داخله يسارا حيث توجد وسادة محشوة بقش الأرز ومغلفة بالخيش الأبيض، يرفع طرفها وينظر أسفلها ليطمئن على شيء ما، تحسس الأرض بيده برفق، تناسى شعورة بالقلق وابتسم، أعاد الوسادة إلى سيرتها الأولى وجلس يتأمل الكون من فتحة الكوخ.

ستون عاما مرت من حياته، كان شـابا مفتول العضلات من أثر العمل الدائم في الحقل ضاربا بفأسه وحاملا أثقالا أخرى مما أكسبه فتوة وقوة جعلت جسده يغرى النساء اللائى يقصدن زيارة البئر، إلا أن الحيـاء كان يمنعهن عن إبـداء رغبتهن، فكانت كل واحدة منهن تقرر في داخلها أن تؤجل ذلك الأمر حتى يوم تكون فيه وحيدة عند البئر.. وتقريبًا لم يحدث ذلك، فحالما تأتي إحداهن ولا تجد أحد غير معوض عند البئر، كانت تخشى أن تأتي أخريات وهم في غفلة عن الكون، ووقتها تكون «فضيحتها في البلد بجلاجل».

مع ذلك لم ينجو جسـد الشاب الغر «معوض» من المشاكسات والمداعبات تفعلنها جميعًا معه، سواء كان وحيدا أو أمام والديـه، وذلك من قبيل:

- معوض دا زى إبني.. أو أخويا الصغير..
- دا إذا شافنى في يوم عريانه يغطينى..

عاش أمام أعينهن إلى جوار البئر.. لكن بعدما ورث أبيه ودخل مرحـلـة الرجولـة تغيرت الأوضاع، وجب عليه عـدم التواجد إلى جـوار «المطلـب»، تعاليم البئر تقضـى بتركه المـكان فور وصول سـيدة ترغـب في الانفـراد بذاتها، لكنه لـم يكن يذهـب بعيدا إنما يقطن كوخه.

كوخه الذي يعتبره محرابه وملاذه الحقيقى على مر الأيام، فعندما تأتي السـيدات للاستحمام في البئر على قلة مائها، وقتها يجب على

معوض أن يدخل كوخه ويغلق بابه خلفه، وكل ما له عند السيدات هو الأجر، تجمعه إحداهن، ثم تنفحه إياه وقت الانصراف..

كان هذا المال، على قلته، يمثل ثروة تتكون مع الأيام، حتى إن بعض الأقرباء كانوا يقصدون معوض، بعد أن انفرد بالبئر، للسلف فكان يرفض بحجة أنه لا يملك شيء يذكر وهذا ما يمنعه من الزواج، فالبئر لم تعد رائجة في هذه الأيام، كما قل إقبال النساء على البئر، ذلك ما كان يقوله دائمًا وبطبيعة الحال لم يكن يحتوى على الحقيقة مطلقا.

الحقيقة هي أن معوض رغم وفرة المال لديه بسبب البئر، إلا أنه كان يخشى أن يقرض أحدا مالا أو أي شيء يملكه، طبيعته ترفض العطاء مهما كان المطلوب منه..

تعود دائمًا أن يمد يده ويتلقى.. يأخذ المال أو ما تنفحه إياه السيدات، فقد كان أحيانًا يتلقى مواد عينيه «فرخه أو بطة أو.. أي شيء» المهم لدى معوض هو أن يأخذ، وفي المقابل كان يقتر على نفسه وزوجته وولده شفيق، كانت زوجته تصارحه بذلك، فيبتسم صامتا، لم يعترف أبدًا بشدة بخله على اعتبار أنه يفعل ما يفعله الجميع، ومن يتعدى تلك الطريقة يُعد من المسرفين..

كانت وجبة الطعام الأساسية لدى معوض لا تتعدى قطعة من الجبن القديم تحملها إليه زوجته «نفوسة» من الجرة الموضوعة

فوق السطوح وبصلة وبعض نباتات الأرض الخضراء الصالحة للطعام..

لم يفكر يومًا في أن يغير وجبته، فهو لديه القدرة أن يعيش عليها حتى آخر يوم في عمره، لكن زوجته كانت تشترى كل يوم خميس كيلو إلا ربع لحمة تطبخها على مرتين وتشترى بجانبها احتياجات طعام الخميس من محشى الكرنب أو محشى ورق الخس أو ورق الحميض والسلق، كل في موسمه.

كانت تفعل ذلك رغما عن معوض الذي كان يُقبل على الطعام، ما دام قد صار واقعا وصُرف ماله، يلتهم أكبر قدر ممكن وهو يعلق:

- ما كانش ليه لازمة كل دا يا نفوسة..

- يا راجل اتغذى.. ورُم عضمك..

وتقذف في فمها ملء قبضة يدها طعام وهي تكمل حديثها متعثرة:

- ما حدش واخد منها حاجة يا معوض..

لا يلحظها معوض لانشغاله بالطعام قائلا:

- لو كنت اتجوزت واحدة قلبها على القرش زيى، كنا بقينا أصحاب ملك.

تتوقف نفوسه لحظة عن تناول الطعام، وتجيبه بانفعال، يكش معوض أمامه:

- ليه بقى؟.. باعمل إيه يعنى أكتر من غيرى يا معوض؟

كانت نفوسة دائمًا تنهى النقاش بالانفعال الذي يجعله ينسحب مفضلا الصمت وإعلان الهزيمة فذلك عنده أفضل من أن تتمادى نفوسة وتستشهد بفلان وعلان..

الوضع القائم حيث إسراف نفوسة في حال شرائها الكيلو إلا ربع لحمه أسبوعيا أفضل من أن تقلد بعض جيرانها.. ومن يعلم فقد تصل بها الأمور إلى حد طلب طهى «الزفر» مرة في وسط الأسبوع تلك هي الطامة الكبرى التي قد تقع رأس معوض..

لمثل هذه الأسباب كان معوض يفضل الانسحاب والبقاء إلى جوار البئر، يدخل إلى كوخه يغلق بابه خلفه، حتى تجد السيدات الحرية الكاملة في الحركة حول البئر، وإن كن يعلمن أن معوض يشاهدهن من خلف فتحة الباب الموارب، أو من أحد الثقوب المنتشرة بين جدرانه.

كن يعلمن ذلك ولا يشعرن بأي حياء، فإن حدث يومًا وانتشر خبر أن هناك من يراقب نساء «المطلب» كانت السيدات تجيب بشدة:

- والختمة الشريفة ما حصل..

ويقسمن بأنهن شاهدن معوض نفسه يترك المكان ويرحل فلم يحدث مطلقا أن تواجد معوض أو غيره إلى جوار البئر وهن هناك.

كان الحفـاظ على قدسـية البئـر وطهارتها، شـيئًا غاليا يخصهن بالدرجة الأولى وذلك خشـية أن تتسبب الأقوال والشائعات حول «المطلب» في عدم ذهابهن إليه مرة أخرى وقد كان سلوتهن الأولى، تليه في الترتيب «الراس» حيث يغسلن الملابس والأوعية والحُصر وحبوب القمح والذرة قبل الذهاب بها إلى ماكينة الطحين..

السـيدات المحترمات، كما يطلق عليهن معوض نفسـه، ينزلن إلـى البئر وقد ارتدين ثيابهـن الداخلية فقط، أما الأخريات فيهبطن أرضه كما ولدتهن أمهاتهن..

كثيرًا ما كان معوض يغض من بصره، إذا اسـتطاع التغلب على نوازع نفسه، وقلما كان يحدث ذلك..

كان يغض من بصره خشـية لِئلا تُنـزع البركة الموجودة في البئر والتـي من أجلهـا تؤمها السـيدات الراغبات في الحمـل أو اللائى تأخـر حملهن أو انخفـض إدرار لبنهـن.. كن يذهبن للاسـتحمام فـي البئـر، كثيرًا ما كانـت لا تصيب معهـن هذه الأفعـال ولا تأتي بنتيجة، فكن يعللن ذلك بأن النصيب لـم يأتي بعد أو ربما لأنهن لم يحترمن قدسـية البئر، ويقصدن بذلك أمـور كثيرة منها ملاحظتهن لعين معوض المتلصصة أحيانًا، أو غيرها من فوق أسـطح المنازل القريبـة، أو من بين أعواد الذرة في موسـمه، دائمًا يشـعرن بسـهام نظرات المتلصصين عليهن ويبتسمن ويغمزن بطرف خفى وتعض إحداهن شفتها السفلى حتى تكاد الدماء تقطر منها..

قـد يصـل الأمـر بإحداهن أن تسـتعرض بجسـدها مظهـرة نهديها النافرين وكأنها وحيدة في حجرة نومها أمام مرآتها، ثم تعقب ضاحكة:

– بس يا نسوان أحسن حد يشوفنا..

كانـت هذه بعض الأسـباب التـي تجعلهن يقبلـن بعدم جدوى البئر، فدائمًا التقصير منهن وليس من البئر..

إن حـدث وأصابـت إحداهن مطلبها، أعلنـت فورا على الملأ أن بركة «المطلب» هي السـبب في تحقيق هـذا الحلم من حمل.. أو غيره..

يحدث ذلك على مر السـنون، حتى إن شـهرة المطلب تخطت حدود القرية إلى القرى المجاورة، وإلى المدن القريبة أيضًا..

كانت سعادة معوض تتضاعف حالما تأتي زائرة من مكان بعيد، كان يشعر بزهو، فها هي سمعة بئره تصل إلى أبعد مدى..

معـوض يتقاضى مـن الوافدات عشـرة جنيهات عـن الواحدة، أمـا سـيدات القريـة فكن يدفعـن خمسـة جنيهات فقـط، ذلك في الأيـام الحاليـة، وغالبا مـا يؤجلن الدفـع إلى حين عـودة الأزواج يوم الخميس من سـفرهـم حيث العمالة باليوميـة وحالـما يأتي يوم الخميس يكون كل شيء قد ذاب في تجاويف الزمن..

لم يكن صاحب «المطلب» يخلو من بعض مكر ودهاء، اكتسبه بصعوبـة مع مرور الزمن، يطلب مـن المماطلات الدفع مقدما، أو يرسـل نفوسـة في شـراء أي شـيء منهن مقابل ما عليهن من مال،

تشـترى نفوسـة الجبن القريـش أو البيض أو الفـراخ البلدى. وإذا كانـت الوافـدة تأتـي لأول مرة لزيـارة البئـر يتقاضى منها خمسـة جنيهات فقط وذلك كنوع من الجذب والتسويق لبئره.

يعـود معوض إلى وعـيـه بالمكان حينما يسـمع صوت ينادى، يطل بوجهه من فتحة باب الكوخ، إنها «جمالات» زوجة عبدالغني مصطفى، آتية إلى البئر تسحب خلفها جاموستها للتبارك بمائها.

أَلِـفَ معـوض ذلـك وقَبِلَهُ غيـر متضايق، فقـد اعتبـر أن تبارك الماشية بالبئر نوعا من القوة تعضدها وترفع من شأنها..

جاموسـة جمـالات كانت قـد قطعت اللبـن منذ ثـلاث ليال.. بخـرت جمالات الـدار.. أتت بالماء وقرأ لها عليـه الحاج بركات شيخ الزاوية بعض الآيات ورشته في جميع الأركان.. رشت على راس الجاموسة مقدار صاعين من الدقيق ناعم.. بكت إلى جوارها من شدة الحيرة علها تحن ولكن ها هو اليوم الرابع يأتي وما زالت الجاموسة تنكر اللبن..

بهـذا أخبرت معوض الذي خرج من كوخه، وأخذ بطرف حبل الجاموسـة هابطا إلى القاع وجمالات تدفعها لتشرب قليلا من ماء البئر.

بـذلا في ذلـك مجهـودا ملحوظـا، والجاموسـة ترفض بشـدة الهبـوط فوق صخـور البئر، يجذبها معوض بشـدة لا تتناسـب مع أعوامه الستين ناشـبا قدميه الحافيتين بين الصخور حتى نجح في

ذلك، هبطت الجاموسة إلى قاع البئر ووقفت تنظر يمنة ويسرة نافرة، دون أن تمس الماء..

تضايق معوض وعرض عليها الماء أكثر من مرة جاذبا الحبل إلى أسفل وهو يسأل جمالات:

– هي شربت النهاردة..؟

– شاربة أدان العصر..

ظهر الضيق أكثر على وجهه وتعمد إظهاره أمام جمالات ليضمن الحفاظ على سمعة بئره.. ترك حبل الجاموسة الواقفة على أرض قاع البئر وتوجه صاعدا:

– لما أنت عارفة إنها ناكرة اللبن وهاتجيبيها «المطلب» سقيتيها ليه؟

– من يوم ما نكرت اللبن، وأنا عقلى مش في راسى، أعذرني يا معوض.

– خديها وتعالى بكره.. وبلاش تسقيها خالص..

– طب أصبر عليها شويه..

تركها معوض منسحبا في هدوء حتى استقر في كوخه، فقد شعر بالبرودة بعد أن كان الدفء قد أذاب خلاياه، يرتدى سروال قصير وقميص متسخ بطبيعته بالإضافة إلى بقايا الطين العالقة من أثر انزلاقه عند منحدر الجسر..

دثـر ظهره بجـدار الكـوخ ورفع ظهر يده يمسـح بهـا قطرة ماء رشـحت وتدلت من أرنبة أنفه فشـاهد طرف كم قميصه المهترىء الذي انحسر عن يده وبرزت بوضوح أطراف أصابعه ناشفة مشققة تمامًا مثل كعبي قدميه..

استرقت جمـالات النظـر، فلمـا وجدتـه عنها شـاردا، أخذت تحمل من ماء البئر بكفيها وتضعه على رأس الجاموسة وأكبر جزء من جسدها..

تنحنح معوض من بعيد، ليعلن لها أنه يشاهدها ويتابع إن كانت الجاموسـة قد شربت أم لا جلسـت جمالات أسفلها حتى توارت عنه تمامًا وأخذت تغسل ضرعها بالماء مرة بعد مرة.

ألقى معوض بجسده على الوسادة المحشوة بالقش، فوقع نظره على ثقب في جدار الكوخ فعلته يد صديق له يوم رافقه وانتظر معه داخل الكوخ..

كان ذلك في سِـنى شـبابه الأول، حين أشعل هذا الفتى بداخله رغبات حارة كامنة، فقاما معًا بلف عدد من السـجائر وانتظرا على نار الشباب المتأجج، حضور إحدى زائرات البئر لمراقبتها من هذا الثقب.. طال انتظارهما دون جدوى.. عادا إلى منزلهما..

لكـن صديق معوض لم يدع الأمر يمر هكذا، فقد جلس مسـاء هـذا اليـوم على المصطبـة داخل المقهى وأسـند ظهره بشـدة إلى الحائط ومد ساقيه على طولهما، وسحب نفسا طويلا أخرجه على

دفعات، صانعا سحابة من الدخان فوق رأسه وقبض على طرف قطعة البوص الخاصة بـ «الجوزة» وارتكز على طرفها بصدغه، وأقسم أمام جميع رواد المقهى بأنه شاهد بعينيه حسناوات عرايا..

وصل الخبر إلى والد معوض، ذلك الرجل الممتلىء، غضب بشدة وقبض بكلتا يديه على معوض من قُذاله، ورفعه حتى صدمه بالجدار..

انزلق معوض باكيا واحتضن الأرض من تحت والده وهو يعترف بالحقيقة الكاملة، اطمأن الرجل فأخذ ولده ووصل منزل صديقه وأحاط بهما وحملهما إلى المقهى، فاعترفا أمام الجميع بأنهما لم يشاهدا أي امرأة بجوار البئر ووعدا ألا يفعلا ذلك أبدًا..

ظل معوض ممنوعا من الذهاب ناحية المطلب لأكثر من شهر بعدها جلس مع والده الذي شرح له في حنان أبوى قلما يشمله به، أن سمعة البئر أهم شيء يجب الحفاظ عليها وإن لم يفعل الوالد ما فعله أمام الجميع لكانت الطامة الكبرى على رأس أصحاب البئر، حيث يمنع الرجال نسائهم من الذهاب إلى البئر..

تعلم معوض الدرس جيدا ووعاه، لم يكرر مثل هذا الخطأ خوفا من والده الذي كان يتابع أفعاله ويرصد حركاته، ولأسباب أخرى نبعت من داخله على مر الزمن، شعر من خلالها أنه ارتبط بالبئر، فقد شاهدها بعين أخرى، أحس بها كأنها كائن حي ينبض

بالحيـاة أمامه يجب أن يحافظ عليها حقًّـا، لما زادت هذه الروابط يومًا بعد يوم أحس بكل ما حدثه به والده..

تظهر جمالات من البئر وخلفها الجاموسة.. فسألها ولم يفارق مكانه:

- شربت؟

- لأه..

- إمنعى عنها الميه.. وهاتيها بكره..

ذهبت السـيدة وخلفها الجاموسـة تسـير بالفطـرة، وكأن بينهما رابـط غير مرئـى فقد كان الحبـل مرخى بينهما، تـوارت جمالات وجاموسـتها خلـف المنـازل المجـاورة، سـحب معـوض نظراته المتابعة فشـاهد قرص الشـمس الأحمر القاني يقتـرب من دخول مسكنه الليلي وامتزجت السحب الكثيفة الداكنة مع الظلام الهابط وهـدأت الرياح وكأنها قـد تلقت الأمر بالعودة إلـى موطنها تاركة المكان إلى رواد الليل..

وقف معوض داخل الكوخ.. مد يده إلى سـقفه وأعادها حاملة جلبابه القديم، لبسـه فوق سـرواله المهترىء وسـحب من أسـفل الوسـادة حـذاء قديـم لا مؤخرة لـه ومقدمـة أظهرت إصبـع قدمه الأكبر ذو الظفر الغليظ المتسخ..

انتقل إلى طرف أرضه التي تحيط بالبئر، كانت مزروعة برسيم، حمل منجله وهش به يمينا ويسارا على شواشى البرسيم حتى تتساقط عنه قطرات المطر العالقة..

اعمل يديه بهمة حتى خلف وراءه «عقدة» برسيم كاملة.. كان البرسيم ربيعي أخضر طرى أغراه بأن يجعلها «عقدة» مضاعفة..

حملها على ظهره بعد أن أعاد منجله إلى مكانه، وانطلق ناحية منزله داخل القرية، فقد أذن لصلاة المغرب، سيطرت ألسنة الليل الصماء على المكان..

كان أول منزل يمر معوض من أمامه وهو في طريقه إلى داخل القرية هو منزل السيد شاهين، ذلك المنزل المقام حديثا وتطل إحدى شرفاته على بئر معوض..

ترامى إلى سمعه من الداخل أصوات.. صراخ.. عويل.. يبدو أن الشياطين هربت من برودة الجو ومارست عملها داخل بيت السيد شاهين، يعلم دائمًا أن هناك خلافا بين السيد شاهين وزوجته بسبب أحمد ابنهما الأكبر، اقترب معوض أكثر بشكل فرضه عليه الطريق مما أتاح له أن يسمع بوضوح:

- الواد في الجامعة.. كل البلد بتحسدنا عليه.. وأنت واقف له على الواحدة..

- دا أنا حارم نفسى من الزاد.. وهو طلباته ملهاش آخر..

- الصبح هابيع الحلق، وياخد تمنه..

- وبعد الحلق هاتبيعى إيه تانى؟

مصمص معوض شـفتيه وهو يبتعد عن المكان وصوت السـيد شاهين وزوجته يتلاشى خلفه وعلق بصوته المبحوح:

- يا غلبك يا سيد..

لـم يشـعر معوض بتلـك النظرات التـي كانت تتابعه من شـرفة منزل السيد شاهين، تلك الشرفة التي تطل على المطلب..

■■■

الشـاب أحمد شاهين، يتابع بهدوء «المطلب» وما يدور حوله، لكنـه في هذه اللحظات، كان يقف بحكم العادة، لم ير شـيئًا حيث كان ذهنه مشغولا بمتابعة ذلك الحوار المشتعل بين والديه بشأنه..

لـم يهتم أحمـد كثيرًا بتفاصيـل الحوار، كل مـا كان ينتظره هي النتيجة والتي من المؤكد أنها سوف تكون في صالحه..

يعرف جيدا طباع والديه، ليسـت المرة الأولى التي ينشـب فيها مثـل هذا الخلاف، وإن كان اليوم يتسـم بالشـدة والضراوة، حيث عِظم المبلغ الذي يطلبه..

دائمًا يحقق ما يريد بهدوء وسكينة تتفق مع وسامته التي تجعله محـط الأنظار، سـيما من زميلاتـه في الجامعة، لم تسـتطع واحدة منهـن أن تنال منه غير «سـلوى الجميل» التي اتخذت منه الأسـتاذ

قبل الحبيب وهذا ما أرضى غروره المتضخم، فاستمرأ الوضع وتمادى فيه..

كان ذلك منذ عامين تقريبًا عندما شاهدته في مكتب التنسيق، كانت تحمل أوراقها وتقف كالتائهة وكان هو بصحبة طالب يقدم أوراقه ويرشده إلى الطريق، كأنه خبير عالم بكل أسرار المكان.

اقتربت منه سلوى في صمت، تاهت على أعتاب ابتسامته العريضة طلبت مساعدته.. إنه أول عهدها بالحياة الجامعية التي طالما حلمت بها.. تحدثت إليه كثيرًا..

كل ما كانت تحلم به باستمرار عدة أمور منها التحرر من زى المدرسة الكحلى والقميص الأبيض والجوارب البيضاء ذات الكلفة، وكذلك الصحو من نومها كما تشاء دون الخشية من جرس المدرسة الممل، كما كانت تحلم أيضًا بأن تحمل كشكول المحاضرات تضغط به صدرها في هدوء وتسير متأنية تمس أديم الأرض برفق.. وأكثر ما احتل قائمة أحلامها صورة ذلك الشاب الوسيم الذي تتعلق بذراعه وترمى برأسها على كتفه يبثها كلمات الحب، كانت تلك الصورة بالذات تهتز في رأس سلوى لا تكاد تمسك بأطرافها، تراها بلا معالم دقيقة فصورة ذلك الشاب الوسيم لم تكن تحتوى على تفاصيل دقيقة مثل لون العينين.. الشعر.. الأنف.. وغير ذلك..

لهذا ما أن رأت أحمد شاهين حتى قامت بمزج بينه وبين صورة الشاب في أحلامها فاتضحت الصورة وصارت مجسمة..

أنصفتها الحياة، قالت ذلك، حينما ألحقتها بنفس الكلية ومع بداية العام الدراسي بحثت عنه بلهفة و.. ومر عليها عامان وهي تتعلق بذراعه وترمى برأسها على كتفه..

سلوى الجميل هي اللحظات الهادئة في حياة أحمد شاهين، استطاعت أن تنفذ إلي قلبه بمهارة امرأة خبيرة، رغم شروده الدائم مفكرا في عالم الغد.

كثيرًا ما كان ينظر إليها، يسبح في عينيها، يصارحها، تحمل قسمات وجهه ألف معنى مغلف بالحزن:

- وبعدين يا سلوى؟

- خلينا في النهارده يا أحمد..

- عشان نقدر نعيش النهارده.. لازم نطمن على بكره..

- بكره مش في ايدينا..

- ولا النهارده يا سلوى..

لا تعلق بشيء، تسحب يده، تضمها بين راحتيها بشدة فتنها الحب ونشوته، ترفع يده إلى شفتيها تقبلها في حنان..

يتذكر أحمد ذلك وما زال واقفا شاردا في شرفته المطلة على «المطلب» أطبق الظلام، شاهد سيدة صغيرة السن يبدو أنها حديثة

العهد بالزواج تمر بالقرب في طريقها تحت جنح الظلام، متجهة إلى البئر، اختفت عن نظره يعرف ما ستفعله، رغم برودة الجو سوف تخلع ملابسها وتستحم في الماء القليل بقاع البئر وتترك مبلغا من المال أسفل عقب باب الكوخ، يأخذه معوض عند وصوله في صباح اليوم التالى وقد لا تترك شيئًا..

أدرك أحمد ذلك بحكم تكراره أمامه، لم يعد يكترث بما يحدث، يسمع صوت والده عاليا

- كل اللي حيلتي بنيت بيه الدار، عشانه هو وأخواته..

منذ سنوات قليلة كان منزلهم بالطوب الأحمر نتاج القمائن، ومسقوف بالقش والبوص فوق عروق الخشب الشق..

كان يشاهد البئر من فوق سطح المنزل، يغوص بين حزم القش حتى لا يراه أحد، يتابع حركة الزائرات، لم يدرك وقتها حقيقة ما يقال حول «المطلب» من مّعجزات وأساطير، كل ما كان يثيره «المطلب» بداخله هو أنه يوفر له مشاهدة الأجساد عارية أو شبه عارية.

مع بداية نمو بذور الرجولة بداخله، وجد في هذه الأجساد المنفذ والمأوى، يشاهد بعينيه ويذوب بجسده وسط حزم القش، وبعد أن تم هدم البيت فضل الحجرة الخلفية..

وصل إلى المرحلة الثانوية، أفرغ طاقته في دروسه للحصول على مجموع مناسب يتيح له دخول الجامعة.. وقد حدث..

مـع تزايـد ارتباط أحمد شـاهين بالحياة الجامعيـة كان يتناقص اهتمامه بالبئر فلم تعد بالنسـبة إليه مجرد إشـباع لرغبات محمومة سـيما بعـد أن نمـت علاقتـه بسـلوى الجميـل، تحولـت نظراتـه إلـى «المطلـب» من السـطحية والمراهقـة إلى نظـرات أكثر عمقا وتفحصا..

- لماذا حِيكت كل هذه الأساطير حول المطلب؟

- هل هي حقيقة أم خيال من نسج أسرة معوض على امتدادها؟؟

لـم يجد بداخله ذرة يقين واحدة بـكل ما يقال حول «المطلب» وكثيـرا ما فكـر في إثبات كذب هذه الشـائعات، لكن كيف يتاح له ذلك؟ لا يدري..

عادت السـيدة الشـابة من «المطلب» لم تلمح أحمد في شرفته المظلمـة، شـاهدها عندما مرت من خلال شـعاع باهت صادر من نافـذة قريبـة والمـاء يبللهـا وثيابها تلتصـق بجسـدها المبتل وهي ترتجـف مـن البرد، حتـى إنها ضمـت ذراعيها إلى صدرها بشـدة تحتمي بهما، أسرعت الخطى فابتلعتها طرقات القرية..

دائمًا يهرب أحمد من أفكاره إلى صدر سـلوى، سابحا في دنيا الخيال محاولا مجاراتها، لكن سـريعا ما تجذبـه أفكاره ومخاوفه من المسـتقبل إلـى أرض الواقع الذي يقف حائـلا بينه وبين أعلى درجـات الحـب ويكبـح جماحـه كلمـا أراد الانطلاق، يشـعر أن سلوى تهبه الكثير وتحبه أكثر مما يحبها هو.. يعلق بضيق:

- الطبيعي يا سلوى إن الحب يكون نهايته الجواز لكن بإيه؟ ومنين؟ وفين؟

لهذه الأسباب كان يتحفظ بعض الشيء في علاقته بها، يَعد نفسه بأنه إذا أتيحت له الفرصة وأجاب الغد مطلبه، سوف يُظهر لها من الحب والحنان ما لم يُظهره أحد..

كان حبه معلقا على الأمل في الغد.. يصعدان معًا ويهبطان معًا..

أدركت سلوى بغريزتها شيء من ذلك، فكانت تثنيه عن النظر إلى الغد وأحيانًا تحاوره عن غده إن كان لديها أخبارا سعيدة عنه..

خرج أحمد من دهاليز أفكاره على يد أمه الحانية:

- خلاص يا أحمد.. الفلوس هاتكون جاهزة الصبح..

■ ■ ■

يصل معوض إلى منزله، يدخل من الباب الخلفي حيث حظيرة الماشية، أضاء مصباحها، فهربت الفئران من المزاود وتسلقت الجدران متوارية خلف أعواد القش وبيوت العنكبوت الكثيفة التي تكونت عبر السنين..

مط معوض شفتيه ولم يعقب، وضع ما معه من برسيم أمام جاموسته إلا جزء صغير دفعه إلى حماره، مسح بيده على ظهره، ثم أطفأ المصباح وأغلق الباب خلفه وهو يقول في نفسه:

- في الضلمه الفيران تحس بالأمان..

فتح باب الوسط ودخل إلى الصالة، كانت الظلمة شديدة دعمتها برودة المكان الخالى من الحياة، علم أن زوجته نفوسة ما زالت بالخارج.

تحسس زر الكهرباء، أضاء الصالة، شعر بالبرودة تدب في أوصاله، عاد إلى المدخل الخلفى أحضر أعواد حطب والمنقد ثم أشعل فيها النار، عبأ الدخان المكان حتى إنه أوشك على حجب الرؤية والتنفس، فترة بسيطة حتى تلاشى الدخان وهدأت النار في المنقد، يجلس بجواره طلبا في الدفء منتظرا عودة زوجته من الخارج..

اعتاد معوض على خروج نفوسة المتكرر، فهي لا تجد ما تفعله بعد أن تنهى أعمالها المنزلية البسيطة، فتخرج لزيارة صديقة أو جارة وأكثر مكان كانت تفضل الذهاب إليه هو الجلوس إلى جوار «سبيله» بائعة الخضار بوسط القرية..

تذهب بحجة شراء الخضار وتجلس إلى جوارها بالساعات حيث تقلبن معًا أخبار القرية بأكملها من شرقها إلى غربها..

تذكر معوض قريته وأهلها، تنهد بصوت مسموع، لقد احتار في أهلها، لم يستطع يومًا أن يدرك لهم اتجاه واضح، يعلق في هدوء:

- كل يوم البلد في حال.

يشاهد نماذج متضاربة، تعبر عنها النساء زائرات «المطلب» كل واحدة منهن لها عالمها الخاص، أحيانًا توحى بأنها من العفيفات

وأحيانًا أخرى تأتي بأفعال (.. !!) تجعل معوض يمط شفتيه دهشة معلقًا:

- يا سبحان الله..

لم ينس يوم أن أتاه السيد شاهين، وكانا وقتها في العشرين من عمرهما والسيد يعيش في منزل والده وسط البلد، والمنطقة حول المطلب خالية لم تصل إليها المبانى بعد..

أتاه السيد يطلب منه أن يتيح له فرصة لقاء فتاته إلى جوار المطلب وأبرز مبلغا من المال لإغراء معوض، ظل يلح في طلبه باعتبار أن ذهاب النساء ناحية المطلب أمرًا لا يثير الريبة وذهاب معوض، والسيد شاهين إلى جواره ناحية البئر لا يثير التساؤل أو يلفت النظر، لكن معوض رفض بشدة الأمر، متذكرا عقاب والده وعتابه، بجانب إحساسه الناشئ حول قيمة البئر وأهميتها في حياته من جانب آخر..

من قبيل حب الاستطلاع سأل معوض عن الفتاة، وابتسم السيد واعتبر ذلك بداية موافقة فأجابه:

- هانم.. بنت سالم الطويل..

- مرات..

قاطعة في سعادة:

- أيوه .. هي بعينها.. أيه رأيك؟

ذُهل معوض، إنها سيدة متزوجة ومن العفيفات في نظر معوض علـى الأقل حتى هذه اللحظة، يغتاظ جدًّا، ينهر محدثه، يطرده من المكان..

تودد السيد شاهين إلى معوض بألا يخبر أحدا وانصرف حاملا في داخله غضب شديد فقد اعتبر موقف معوض معه نابع من حقد شـخصي لعدم قدرته على أن يفعل مثله مع هانم ويصل إلى قلبها، لهذا ظل يتحين الفرص كي يرد الصاع صاعين..

حتى كان هذا اليوم..

يومًـا بـاردا مثـل هـذه الأيـام.. حيـن تقابلا معًـا فـي دار عطية الشـحات الذي مـا أن يأتي فصل الشـتاء حتـى يقوم بشـراء أعواد القصـب ويضعهـا في حجـرة جانبية لها بـاب على الشـارع، وفي الليل يشـعل اللمبة نمرة عشـرة ويفترش الجميـع الأرض المغطاة بأوراق القصب الجافـة يمصون أعواده الواحد تلو الآخر، ولكون الغرفة مغلقة والعدد بها كثير من الشـباب ذوي صحة وفتوة، كانت درجة الحرارة ترتفع تدريجيًا، ويسـرى الـدفء في أوصالهم، فلا يشعرون ببرد الشتاء القارص أو بزخات المطر في الخارج.

لـم يكن تجمعهم في هـذه الحجرة لمص القصـب فقط وإنما لسـرد الحكاوي والمغامرات والخوض فـي الأعراض والحديث الدافـئ عن جسـد فلانـه أو ميوعـة علانـه، وأيضًا للمقامـرة على تكسير أعواد القصب بـ «سيف اليد»..

بينما معوض يجلس بين أقرانه يفترشـون أرض حجرة القصب وقد أمسـك بجذر قصب ضخم يقشـره ويمتصه في هدوء وسكينة وأقرانه يتسـامرون، دخل السيد شاهين وجلس في الجانب الآخر وأعمل أسـنانه في عـود قصب وهو ينصت إلى همـس الرفاق من حديث أشـعل داخلـه، تذكر هانم.. نظر نحو معوض بغيظ، أشـار بيـده ناحيـة معـوض يحدثـه بشـدة أظهرت ما فـي جوفـه دون أن يتحرك:

- تكاسرنى يا معوض؟

صمت جميع من بالغرفة ونظروا ناحية معوض، الذي أشـعلت نظراتهـم بداخله قوة فوق قوتـه، أجابه بهدوء مواريا انفعاله وحنقه عليه وعلى هانم التي خيبت نظرته فيها:

- أكاسرك..

- كام عود؟

- اللي تقدر عليه..

اضطـرب السـيد شـاهين مـن جـرأة معـوض، فبحـث بداخله يستجمع شتات قوته المتبعثرة:

- أقدر على تلاتة..

- أنا اقدر على أربعة..

تابعت نظرات الجمع السيد الذي ارتبك بشدة، كان موقفه يجبره على أن يزيد في عدد الأعواد ولكنه لن يستطيع تقريبًا، ارتعش وتدفق الدم إلى وجهه بغزارة، انتفض واقفا:

- يبقى نتراهن على خمسة يا معوض..

وقف معوض بهدوء، صاعدا بظهره على جدار الحجرة، أطبق على المكان صمت له طنين جعل السيد شاهين يضغط على أذنيه بشدة ويشهق ويزفر مصدرا صوتا وكأنه يستعد للمعركة، علق أحد الحاضرين معبرا عن دهشته:

- خمسة يا رجالة؟!.. مش هاتقدروا..!!

هنا أسرع عطية الشحات صاحب القصب، خشية أن تفشل الصفقة، فأراد أن يشعل فتيلها أكثر، فيوم سعده أن يتراهن شباب القرية ورجالها على تكسير أعواد القصب بـ «سيف اليد» لديه، فالمغلوب يحاسب على هذه الأعواد، وكلما زادت المراهنات زادت مبيعاته، يعلق في خبث:

- خمسة بس؟.. ليلة امبارح الواد رشاد السباعى كسر ستة من ضربة واحدة..

يؤمن على كلامه عدد من الحضور، رغم عدم مشاهدتهم، ليُزيدوا من إثارة الخصمين، حيث ينتظرهم نصيبا وافرا من أجزاء القصب المتخلفة عن المراهنات..

ارتبك السيد شاهين أكثر، وأسرع بالحديث خشية أن يوافق معوض على ستة أعواد:

- نبدأ بخمسة.. وان معوض قدر.. نبقى نخليها ستة.. هه.. ادخل يا معوض..

- ادخل أنت يا سيد..

- طب حد يمسك خمس عيدان يا رجاله ويثبتهم كويس..

تطوع لهذه المهمة أكثرهم قوة وتحملا، حيث يمسك بكلتا يديه أعواد القصب ويضع يديه فوق ركبتيه، ويجلس جاعلا ما بين ساقيه فارغا ليمر عليه أعواد القصب ثم يقف المتبارون واحدًا إلى جانب الآخر.

تقدم السيد شاهين.. نظر إلى الأعواد الخمسة، فوجدها حقًّا حزمة قوية يصعب عليه كسرها خاصة وأن عطية قد انتقى أعوادا جيدة من الدرجة الأولى حتى يحصل على أعلى سعر، واثقا بأنه لن يعترض أحد خشية من أن يُتهم بالخوف والتردد..

نظر السيد إلى معوض ثم طاف بنظره على كل جزء في الحجرة ثم أنهى نظراته على وجه معوض الذي يتراقص عليه ضوء اللمبة الخافت:

ـ هاتكسر لف والا على العرى؟

استشعر معوض الخوف نابعا من أعماق خصمه، فوثق في النصر فأجابه في حزم:

- اللي تقدر عليه..

- لف..

أسرع أحد الحاضرين ونزع الشال من فوق كتفيه وألقاه إليه، تلقاه ولفه حول يمناه ليتفادى به الألم الناتج عن الضربة..

صمت الجميع، نظروا ناحية السيد شاهين يراقبون حركاته وانفعاله، تقلصت عضلات وجهه.. اقترب.. حبس أنفاسه، اختبر الرباط حول يده أكثر من مرة، رفع يده بشدة.. هوى بقوة رافقتها صيحات التشجيع..

كانت الضربة حقًّا شديدة، والنتيجة التي أعلنها حامل الأعواد بالتعاون مع عطية صاحب المكان هي كسر ثلاثة أعواد فقط من الخمسة، وبقي عودان لم ينفصلا تمامًا.. حاول السيد شاهين أن يحتسبهما ولكن الجمع أصر على أنهما خارج النتيجة..

تابع معوض غريمه وهو ينتفض بشدة ويفرك يديه خلف ظهره، أخذ منه الشال ولفه ثلاث مرات حول يمناه، وبسرعة جلب عطية الشحات خمسة أعواد أخرى ومن نفس الحجم تقريبًا أمسك بها معوض وجعل يضبطها حيث تتوازى الفواصل..

فرد طوله، رفع يده إلى أعلى وهوى بها في حركة تمثيلية مرتين حتى كانت الثالثة والتي أطلقها كما الصاروخ، انفصلت الأعواد الخمسة إلى نصفين وسط تصفيق الجميع وصيحاتهم العالية التي ترددت في صمت الليل..

نظر معوض إلى السيد شاهين بشماتة واستعلاء، ودون أن ينطق بكلمة نزع الشال عن يده وألقاه جانبا وخرج تاركا المكان..

ترامت إلى سمعه أصواتهم وهم يتنازعون حول أجزاء القصب المتخلفة عن المراهنة وعطية الشحات يطالب المهزوم بالسداد..

يبتسم معوض وهو يتذكر كل ذلك، تحسس ظهره المحدودب شاعرا بأسى، فاليوم لا يستطيع حتى الوقوف مستقيما:

- الأيام بتجرى وتاخد معاها كل حاجة حلوة.. مكتوب عليا أفضل محنى وراكع..

سمع خطوات نفوسه تقترب من باب الصالة، ثم يُفتح الباب وتظهر نفوسه، سيدة نحيفة كما عود الحطب الجاف في الخمسين من عمرها، لم تترك لها الأيام ما تفخر به..

أهم ما يبدو على ملامحها وتستطيع ملاحظته من الوهلة الأولى عيناها الزرقاوتين، تلك العيون التي تجعلك تستشعر الإصرار والتحدى وإن كانت هي لا تعي شيئًا من ذلك.

كل ما كانت تدركه حقًّا هو أنها غير مسئولة، بدرجة ما، عما يدور حولها، فكانت تؤدى فقط ما يتاح لها من متطلبات الحياة اليومية بالإضافة إلى التوفيق الدائم بين شفيق ولدها ومعوض زوجها، فلم تسعى يومًا ما خلف هدف صعب المنال أو حتى يحتاج إلى مجهود متوسط..

إنهـا باختصار من ذلك النوع الـذي يجب أن يتم توجيهه دائمًا، ويتم متابعة هذا التوجيه، لئلا تحيد عنه..

في الأيام التي يسـافر فيها شـفيق إلى الإسـكندرية كانت تشغل نفسها بأخبار أهل البلد، كان ذلك من أساسيات حياتها اليومية..

الواقـع أن نفوسـة لـم تكـن كذلـك وقتمـا تزوجـت معـوض، لكـن بمرور السـنوات تحولت إلى هذا الوضع سـيما بعد إصابـة معوض، فقد نضـب المعين..

شـاهدت معوض جالسا قبالة الباب، شاخصا ببصره نحوها في دعـة وهدوء، جلسـت وهي تمـد يدها فوق النار تدفئها، ابتسـمت وهي تسأله:

- رايجه النهاردة..؟

- زى كل يوم..

- المطرة مخليه الناس قاعده في بيوتها..؟

- الناس اللي بقت تخاف تمشـى في الشوارع.. عمر المطره ما عملت فينا كدا زمان..

- زمان بقى..

تصمـت لحظـة ثم تشـهق وكأنهـا تذكـرت الأمر فجـأة وتلقى بجملتها وهي تلوى بوزها:

- على البنات وخلفتهم يا معوض..

- ليه يا نفوسه؟

خلعت حذائها الأسود المصنوع من البلاستيك، جذبت طرفي جوربها الثقيل المتسخ أعلى ساقها النحيلة، لفت نظرها شعيرات متناثرة على ساقها، أشاحات بوجهها وكأنها تقول: وأيه يعنى. تأكدت من تثبيت أعلى الجورب بقطع مطاطية كثيرًا ما كانت تترك أثرا في ساقيها ثم تربعت وخلعت غطاء رأسها وألقته جانبا فظهر شعرها المموج الذي ينتهي بضفيرتين مربوطتين بقطعتين من قماش الستان الأحمر حصلت عليهما من جارتها سهير الخياطة، استعدت لحوار طويل وتسامر تقتل به ما تبقى من يومها:

- البنت ناهد بنت عطية الشحات، هربت وسابت البلد، لايفه على عيل مفعوص يا معوض..

قالت الجزء الأخير من جملتها وهي تنثنى نحوه وتشهق أكثر معبرة عن دهشتها البالغة، كان معوض يدرك تهويلها للأمور فابتسم في داخله وسألها:

- من إمتى؟

- من تلت أيام مش ظاهره، وأمها نشرت في البلد إنها عند قرايبهم في مصر.

- وهو عطيه ليه قرايب..؟.. دا مقطوع من سجرة؟!

- هي قالت كدا.. لكن النهارده كل حاجه انكشفت وجالهم الخبر..

- ماتت؟

- لأه.. شافها واحد في طنطا لابسه منطلون وماشيه مع واحد..

- لابسه أيه؟

كان يود أن يستمع إلى الكلمة منها مرة أخرى وهو يوارى ابتسامته خوفا من غضبها إذا أدركت سخريته ،أعادت الجملة وهي تقسم معتقدة أنه لم يصدقها ثم مصمصت شفتيها ولوتهما وسحبت نفسا طويلا حولته إلى شهقة مسموعة لتضفي على حديثها رونقا خاصا وهي تكمل:

- أبوها أجر توفيق العربجى بعربيته الأجرة اللي اشتراها بدل الكارو والحصان، طلع مخصوص على طنطا.. الحكاية كدا مش ها تعدى على خير أبدًا يا معوض..

علق معوض بهدوئه الذي اعتادت عليه نفوسه:

- كله بيعدى الأيام دي..

- الموضوع كبير والبلد كلها بتتكلم..

- ومن امتى البلد بطلت كلام؟!

- والنبى أنت رايق يا أبوشفيق.. هاقوم أجهز لقمه.. أنا جعانة قوى.

لم يسمع معوض الجزء الأخير من جملتها.. توقف ذهنه عند سماعه ما كنته به زوجته:أبو شفيق أين شفيق الأن؟

في مثل هذا البرد، يسكن شفيق الإسكندرية.. منذ سنوات ترك البلـد.. هرب بعد أن أخبر الجميع أنه مـا هرب إلا ضيقا من والده وتقتيره.

يتساءل معوض بصوت محشرج من أثر انخفاضه:

- بقـى أنـا بخيل، دي نفوسـه كل يوم خميس بتشـترى كيلو إلا ربع لحمه فين البخل بقى؟!

ضغط معوض أسـنانه بضيق شديد، وآلمه شعور الأبوة الخامل الذي قلما يهتز بداخله..

■ ■ ■

فـي الإسـكندرية كان شـفيق يفضـل التصعلـك على شـواطئ البحـر الثائـر، أو بين مقاهي محطة مصر والرمـل، على العودة إلى قريته، أشـد مـا كان يكرهه هـو الإنصات إلى والـده وحديثه الذي لا ينقطـع عن بئـره المباركة وكيفية الحفاظ عليها وعلى سـمعتها، ذلك الحديث الذي لا يكلون أبدًا من نقله من جيل إلى جيل حيث تتوارثـه الأجيـال قبل أن ترث البئر نفسـها، غير شـعوره الدائم بأن والـده يخفي عنه شـيئًا، لديه سـرا ما، يحتويه شـعور دائـم بالرغبة فـي الابتعـاد عن المكان، لا توجـد لديه رغبة فـي الاقتراب منه أو الذوبان فيه كما يفعل والده باستمرار..

رزقهم الله بشفيق قبل الحادث الذي أحنى ظهر معوض بشهور. منذ بداية زواجهما، ظلت نفوسه تحمل وبعد شهور يسقط حملها..

تكرر الأمر أكثر من ثمان مرات وكلما سقط الحمل يرفض معوض أن يذهب بها إلى الطبيب أو حتى إلى الوحدة الصحية التي قيل عنها أنها تحتوى على كل التخصصات..

دائمًا ما كان يأخذها من يدها أمام الجميع، ويخبرهم بأن نفوسه لم ترع الله في حملها، ثم يسرد الأسباب المتسببة في سقوط الحمل، مرة حملت نفوسه حملا ثقيلا فوق رأسها، فانزلقت قدمها اليسرى فسقط الابن المنتظر وهو لا يزال حتة لحمه حمرا..

مرة ثانية قفزت نفوسه من فوق الجدار الصغير المقام بجوار الدار ومنه إلى الأرض مباشرة وذلك حينما كانت تنزل من فوق السطوح بعدما ألقت من الحطب ما يكفى الخبيز، وزيادة على ذلك كانت تمسك في يدها طبق صغير به قطعة من جبن قديم تعوم في المش حملتها معها من الجرة المركونة في جانب من السطوح.. ومرة ثالثة ورابعة.. وفي كل مرة كان معوض يقدم الأسباب التي أدت إلى سقوط الحمل، ذلك الحمل الناتج عن بركة البئر، كل ما كان يتمناه هو ألا تخذل نفوسة بئره وبركتها..

ينشر معوض ذلك على الملأ، مع كثرة صمته، رغم أن أحدا لم يسأله، ليؤكد فاعلية البئر وبراءتها من سقط نفوسه الدائم، حتى كان شفيق، يومها أخبر الجميع بأن هذه هي المرة الأولى التي تلتزم فيها نفوسه بما يجب أن تلتزم به السيدات الحوامل..

إذن جاء شفيق إلى هذه الدنيا بعد عناء سنوات، كان يشعر، عندما يستمع إلى ذلك من أحد بأن المكان يلفظه، بل إن الحياة كلها كادت أن تلفظه..

رغم حسد أقرانه له على ذهابه إلى البئر كان لا يجد لديه الرغبة مطلقا في الذهاب إليها، وبعدما قرر ألا يستمر في الدراسة، كان لزاما عليه أن يرافق والده إلى " المطلب " ليقوم معه على خدمته، لكنه كان كثيرًا ما يهرب ويختبئ، إما في الفاخورة القديمة أو يتسلق شجرة الجميز المعمرة حتى يستطيع ملاحظة والده عن كثب ويتابع حركاته..

تركت الأيام في داخله، على حداثة سنه، تراكمات كان أغلبها يتسم بالكآبة ويتلون بالألوان القاتمة، كثيرًا ما كان يرى العالم من حوله على شاشات التليفزيون المتصل بالطبق الهوائى الموجود في مقهى حسن النجار على الجسر، فيشعر بالضآلة والانعدام. هؤلاء هم الذين يعيشون حقًا ثم يعقب بصوت منخفض:

- بره بلدنا الناس عايشه بصحيح ..

ترك القرية وسافر، لم تكن له وجهة معينة، في المدينة المجاورة وفي محطة القطار جلس حزينا مهموما، مر قطار متجه إلى الزقازيق، دلف إليه غير عابئ بما تحمله الأيام.

في الزقازيق ظل يتسكع لمدة طويلة حتى أصابه التعب وتورمت قدماه، لجأ إلى حديقة عامة كادت أشجارها تفارق

الحياة نتيجة الاهمال، نام رغما عنه، لكنه ما لبث أن استيقظ على يد طرية ممتلئة تزغده، كانت يد الشرطى الذي حمله كمتسول..

في القسم نظر أمين الشرطة إليه طويلا عله يُخرج ما في جيوبه من مال، هذا ما لم يفعله شفيق لجهله بمثل هذه الأمور، فأرسله إلى الحجز كدليل على همته ونشاطه وحرصه على سلامة المواطنين من شرور المتسولين..

في غرفة الحجز تعرف شفيق، الذي لم يكن وقتها قد بلغ السادسة عشرة، على مجموعة من الأولاد في مثل عمره..

بعد برهة عرف أنهم يتسولون في القرى المجاورة لمدينة الزقازيق أو أي مكان تصل إليه أيديهم، دُهش شفيق، كيف يتسولون وهم في مثل هذه السن، إن من يشاهدهم في قريته رجال ونساء بلغوا من العمر أرذله ممن أجبرتهم ظروف الحياة الصعبة على سلك مثل هذا الطريق. ضحك الفتى، مجاور شفيق، يدعى سعيد رأفت وشهرته «الهوى» لكثرة ضحكه وإطلاقه النكات اللاذعة، وأيضًا لإسرافه الشديد على ملاذ الهوى حتى أن جسده نحل بشده و«صدره شخشخ وزيّق» من كثرة الدخان رغم صغر سنه.. ضحك «الهوى» حتى سقط على قفاه ولم تظهر من كلماته غير القليل المبهم:

- عواجيز.. !! .. آه يا فِلح..

تماسك شفيق أمام إهانة مجاوره الذي جذب كيس قماش متسخ من أحد الأركان وأخرج منه جلبابا قديما به عدد من الثقوب، بالإضافة إلى شال وتلفيحة في أسوأ صورة، بسرعة ارتدى هذه الملابس وأحنى ظهره قليلا، تداخلت في رأس شفيق صورة الحرباء التي كثيرًا ما شاهدها بين غصون شجرة الجميز، ممزوجة بصورة باهتة لإنحاء والده لكنه سريعا ما هز رأسه بشدة ينفض عنها هذه الصور..

راح «الهوى» يمثل الطريقة التي يتسول بها ويمط في الكلمات ويخرجها بصوت واهن ضعيف ولوى فمه حتى سال جزء من لعابه:

– ساعدوا المريض يا أخواني.. الأب عاجز والأم ماتت من الجوع والمرض هدنى.. آه ساعدونى ربنا يخلى أولادكم ويطرح فيهم البركة ولا تشوفوهم يوم مكانى.. يا أهل الخير ساعدونى.. مريض بالكلى والكبد وباغيّر دم..

ثم انفجر ضاحكا حتى سقط على ظهره مرة ثانية، رافعا ساقيه في الهواء بشكل تمثيلى، فقفز إليه زملائه يضربونه وعج المكان بصرخاتهم وتعليقاتهم المتطرفة:

– بتضحك ومش عارف تكمل يا إبن الـ....

ينهض الغلام من بينهم بصعوبة وهو لا يتمالك نفسه من الضحك، ويرد اللكمات إلى زملائه الصاع صاعين وهم يهرلون أمامه ضاحكين في صخب، مرددين في صوت جماعى:

ـ العبيط أهه.. العبيط أهه..

استمر هذا الوضع في غرفة الحجز مدة حتى شعروا جميعًا بشيء من التعب انتهى بسقوط «الهوى» بين قدمي شفيق الذي كان يتابع ما يحدث في صمت وخوف..

انكمش شفيق بعيدًا عن الغلام، الذي جذبه بشكل مفاجئ وبوقاحة من أماكن جعلت شفيق يرتعد ويكاد يخترق الجدار من خلفه.. ما إن فعل شفيق ذلك حتى انفجروا جميعًا في ضحك وصياح جعل الفتى يعاود فعلته وبشكل أكثر تطرفا، فاضطر شفيق إلي دفع يد الغلام، فكان يطيح بيديه في الهواء يمينا ويسارا كمن يدفع أشباحا في ظلام حالك.. يهدأ الغلام ويتحدث إلى شفيق متصنعا الوقار:

- وقت الشغل ما أقدرش أعمل كدا..

ثم ينظر إلى الجميع، يقترب من أذن شفيق الذي يتراجع برأسه ويتحدث إليه هامسا:

- الفلوس كتير.. أشرب سجاير محشية.. وأيام أقعد في قهوة أم السيد وأيام أدخل القهوة من الباب التانى..

لم يفهم شفيق من مجاوره شيئًا، شعر باختناق رهيب، نظر إليهم جميعًا نظرة ملؤها الكراهية والبغض، تذكر والديه.. يدفع الغلام بقوة لا يدري من أين أتته، فيسقط الغلام مذهولا بينما شفيق يخرج ما بداخله من غضب صارخا:

- محشية أيه؟.. وأم السيد مين؟.. ابعد عنى بقى..

ساد الصمت لحظات، والفتية يتبادلون النظرات، وفجأة انفجروا جميعًا في صياح مزعج، جعل شفيق يختنق أكثر، انهالوا على «الهوى» ضربًا مبرحًا، دُهش شفيق من قدرة الغلام على تلقى كل ذلك الإيذاء ضاحكا.

توارى شفيق كفأر ضال، بينما استمر الوضع لحظات والفتى يحاول الفرار من مهاجميه، خاصة عندما صرخ أحدهم:

- أنا حا أخلع لك هدومك، وخلى أم السيد تنفعك..

هنا يصرخ الغلام ويقفز مستقرا خلف شفيق محتميا به بشكل جعل شفيق يرتعد في مكانه ويحاول الابتعاد عنهم، لكن «الهوى» يمسكه من الخلف ويظل متعلقا به وهو يصرخ:

- وحياة أمى آخر مره أروح لوحدى.. خلاص..

تاه صراخ «الهوى» بين هجمات الأولاد وصراخهم، حاول جاهدا أن يبعد عنه الأيدى العابثة لكن دون جدوى، فصرخ مستنجدا بالشاويش الذي أتى وهو يسب ويلعن ويفرك عينيه من أثر النوم الذي غرق فيه منذ ساعات ويقف أمام باب الغرفة وهو ينهرهم:

- اتلموا يا ولاد الـ... أحسن أوريكم اللي عمركم ما شفتوه..

- الحقنى يا باشا هايموتوني..

- ما تخفى منك له.. لزمتكم أيه في البلد غير القرف..

- وحد قال لكم امسكونا.. سيبونا نقلب عيشنا..

- لو بإيدي يا إبن الدايخه، كنت رميتكم لكلاب السكك تنهشكم..

يشعر شفيق بنوع من الإنصاف لشخصه من خلال كلام الشاويش لهذه الفئة، قرر أن يتحدث إليه ليشرح له وضعه وعدم انتمائه لهم، لكن «الهوى» تحدث في لا مبالاه:

- عايزين ناكل..

هدأ الشاويش وانفرجت أساريره لحظة ثم تجهم مرة أخرى:

- طلع اللي في جيبك منك له..

أخرج «الهوى» مبلغًا ثم دار على البقية يجمع ما أظهروه من مبالغ حتى وقف أمام شفيق الذي علق في هدوء:

- أنا مش جعان..

سمعه الشاويش فتضايق بشده وصرخ فيه:

- ادفع وعنك ما أكلت..

تبخر الأمل، الخاص بإنصاف الشاويش، من قلب شفيق وهو يستخرج جزءًا مما يحمله من مال.

بعد دقائق عاد الشاويش حاملا عددا من الأرغفة السوداء وربطتين من الجرجير البايت ولفه بها قطعة جبن..

كان الطعـام لا يقابل ربع المبلغ الذي أخذه الرجل وذلك لقلته حيث لا يكفى إشباع فرد واحد أو اثنين نصف بطن.. بعلق أحدهم غاضبًا:

- أيه دا؟.. فين فلوسنا..؟

كان الشـاويش يرتـد تاركا المكان، فوقف لحظة، اسـتطاع فيها قلب ملامح وجهه ثم استدار مواجها:

- فلـوس أيه يا ابن الـ... منك له؟ لو سـمعت صوت تانى، كل واحد فيكم ها لبسه تهمة على الأقل فيها سنه سجن..

أطلق الرجل قذيفته مدوية، ترك المكان، صمت الجميع، بحث كل فرد منهم على ركن ينزوى فيه، حتى استقر «الهوى» إلى جوار شفيق صامتا، يستجمع شفيق شجاعته للمرة الأولى ويسأل:

- يقصد أيه؟

- يودينا في داهية يا فِلح..

لا يفهم شفيق ما يقصده «الهوى»، فيلتفت نحوه وقد أراد معرفة ما ينتظره:

- مش فاهم.. فهمني..

تمـدد الفتى وركن ظهره إلى جـدار الغرفة المتآكل من الرطوبة واتخذ سمة العالم ببواطن الأمور:

- تلفيق قضية لأي واحد مننا، حاجه سهلة بالنسبة للباشوات دول..

يشير بيده خارج الغرفة باتجاه الشاويش ومن يعمل معهم، حيث يُطلق على كل فرد منهم في مجتمعنا لقب «الباشا» ابتداء من أقل رتبة حتى أعلاها ويتوقف ذلك على مدى المصلحة الموجودة تحت أيديهم والتي تمكنهم من فرض السطوة والجبروت، ويكمل «الهوى» في أسى:

- أسهل من «شكة الإبرة» ودى بقى فيها نيابة ومحكمة وسجن ممكن يلفق قضايا تقيله بجد زى السلاح الأبيض، والسلاح الأبيض قبل ما تسأل يعنى أيه؟ معناه: مطواة.. سكينة.. سيف. أو يلفق قضية مخدرات، ممكن يدس لفة «بانجو» واللى دايما بيكون مصدرها من الكميات المحرزة، يدسها في جيب أي واحد.. أو أقله تلفيق قضية فعل فاضح..

يستمع شفيق وقد اضطربت أحشائه وتقلصت عضلات وجهه، شعر بانهيار شديد، تهاوت صروح أماله للحظة، سأل نفسه في صمت باك:

- أيه اللي بيحصل لي ده؟ وأنا هنا ليه؟

لملم ما بداخله من رواسب الشجاعة، تماسك عن البكاء وسأل مجاورة بصوت رخو غير متماسك:

- إن سكتنا.. ها يعمل معانا أيه؟

- محضر تسول وكل واحد يروح لأمه..

يتذكر شفيق أمه، تُرى هل تبحث عنه الأن؟ هل تبكى فقده؟ لم يجد بداخله إجابة، كان يرتاب في عاطفة والديه والجميع نحوه..

شخص ببصره نحو سقف الحجرة، شرد لحظات، خرجت منه الكلمات بدون تحكم فبدت وكأنها خرجت وحدها:

- واللى مش عاوز يروح لأمه؟

يعتدل «الهوى» وللمرة الأولى ينظر نحو شفيق بعين فاحصة، ابتسمت أعماقه، فقد وقع على صيد ضال هش:

- وله.. أنت عامل مصيبة؟.. والا وراك أيه؟ فهمنى يا حبيبي حكايتك عشان أقدر أساعدك؟

- مش عايز أرجع.. خرجت أشق طريقى مهما كان..

- هربان؟

- لسه أول يوم.. رماني نصيبى الأسود وسطكم..

دفعه الفتى في كتفه على سبيل المداعبة، ضاحكا وكأنه يزف إليه بشرى:

- يا فِلح رماك حظك وسعدك.. تسرح معايا وتكسب..

- أشحت؟

- مش عيب.. حقنا عند اللي معاهم فلوس وبناخده..

- لأه.. أنا..

- قبـل مـا تكمل جرب، فلـوس بالراحـة، أولاد الحلال كتير، وأخـر السـهرة ناكل المشـوي ونطلـع على أم السـيد ومـن الباب التانى..

- أيه حكاية أم السيد دي؟

- لأه.. دي بالذات لازم تجربها بنفسك..

قـال الفتـى ذلك وجـذب رجل شـفيق ليفردها كـي يصنع منها «مخدة» يضع رأسـه عليها، يُفزع شـفيق خشـية حركاته المتطرفة، فيلم سـاقه بسرعة ولكن «الهوى» يجذبها بشده ويضع رأسه دونما كلمة، فيهدأ شفيق ويتركه على مضض..

ذهـب الغلام خلـف أفكاره وليلته الأخيرة في مقهى أم السـيد، كان يبتسم في نشوة غريبة، وبعد لحظات اعتدل جالسا وهو يصيح:

- كل دا وبعشرة جنية بس.. يا بلاش.. والـله عمار يا بلد..

تتزاحم الأفكار بداخل شـفيق، عالـم جديد عليه بكل تفاصيله، لـم يتخيل يومًا أنه سـيخوض مثـل هذه التجربة التـي لا يعرف لها نهايـة، تمنى للحظـة واحدة أن تحدث معجزة تحملـه إلى والديه، ثـم عـدل أمنيته إلى حـدوث معجزة تخرجه من هـذه الغرفة، وهو كفيل بعد ذلك بتسيير أمور حياته فقد تعلم درسا لن ينساه.. تنفس بصعوبـة وهو يطـوف على الجميـع بنظراته، ما هـذا الوجه القبيح الذي يراه من الدنيا؟ ترك والديه ومنزله وبئـ..

زم شفتيه ولم يكمل الكلمة، فهو لم يشعر يومًا ما بأنها بئره، ترك كل ذلك ليتحرر ويتعلم صنعة تدر عليه مالا، إنه حقًا يريد المال ولكن ليس على طريقة «الهوى» وزملائه..

هرب من نفحات نساء البئر ليتقابل مع شرذمة من المتسولين.. يا لحظه التعس..؟!.. شُل تفكيره تمامًا، هؤلاء يبذلون ما يملكون على أعتاب أم السيد، وآخرين باستمرار يتلصصون على البئر.. وهو..؟! هل به مرض؟

منذ صغره يشاهد ما يحدث إلى جوار البئر، يشاهد العرى حتى ألفه، لم يشعره أحد بأنه يشاهد أمرًا غير عادى، عندما خط شاربه وتبعثرت شعيرات رقيقة أسفل ذقنه وجد نفسه ينظر نحوهن بنظرات أخرى ذات مغزى، لكنها لم تلهبه أبدًا كما تلهب سياطها أقرانه، لم ينفعل ذات يوم وهو الشاب المراهق ولم يقترب منهن باغيا شيئًا ما..

يتذكر ذلك اليوم جيدا، يوم انتهى من بعض الأعمال في الحقل، توسطت الشمس السماء وارتفعت درجة الحرارة بشكل ملحوظ، ذهب ناحية «الرأس» ليستحم في ماء النهر، ما إن هبط منحدر الجسر في اتجاه الماء حتى شاهد ثلاث سيدات يغسلن الملابس حيث ربطن الجلابيب على وسطهن وتركن القمصان الداخلية تتدلى في الماء، والرابعة في الماء تستحم.. يومها وقف صامتا ولم يتحرك، كانت عارية تمامًا.. بعدما شاهدته أبقت جسدها كله تحت الماء إلا وجهها.. اقترب أكثر مدفوعا بنوازع خفية:

- مالك يا شفيق؟

لم ينطق بكلمة، للمرة الأولى يشاهد ذلك بعيدا عن البئر، تحرك بداخله شيء ما، اقترب بهدوء الصامتين، ارتبكت إحداهن وألقت بقطعة ملابس رقيقة لزميلتها، بينما الأخريات يراقبن ومازلن يغسلن.. شاهد تفاصيل جسدها ترقص تحت صفحة الماء قبل أن تتواري خلف الرداء الشفاف، خرجت من الماء تلقى ابتسامتها وتلتقط رداء الجد.. الماء يتقاطر من شعرها المسدل في خصلات على كتفيها والرداء يلتصق بجسدها العارى:

- كدا عيب يا شفيق..

فعلقت أخرى ولم ترفع رأسها عن قطعة الغسيل بيدها:

- هو حد عاد يعرف العيب في البلد دي..

ترك المكان وهو يتساءل كيف يفعلن ذلك هنا في هذا المكان المفتوح وعلى هذا النحو؟ ما هي الحدود لديهن؟ تاه شفيق بين أفكاره الماضية والحاضرة..

اليوم ينزوي في أحد أركان غرفة الحجز بالزقازيق.. بهتت كل الصور أمام عينه وتأرجحت، ظلت تدور بهدوء ثم تتسارع حتى تلاشت معالمها صانعة دوامة شديدة ابتلعته مرة واحدة..

لم يشعر إلا بيد «الهوى» تقلبه، وقف بسرعة وأسند ظهره إلى الحائط خشية أفعاله الخشنة، نظر حوله فإذا هم في اليوم التالى وها هو الشاويش ينهرهم جميعًا متوعدا إياهم إن هم عادوا مرة أخرى..

في دقائق كانوا جميعًا في الشارع، أمسك سعيد رأفت الشهير بـ «الهوى» بذراع شفيق وجذبه:

- تعالى..

حاول شفيق الاعتراض، لكن الفتى لم ينصت له، فقد شاهد شابا يافعا مع فتاه حسناء، فتحول إليهما متصنعا المرض:

- والنبى يا بيه جعان ومش لاقى حق الفطار.. ربنا يخلى الست وتعيشوا في الهنا.. جنيه أفطر بيه ينوبك ثواب..

شاهد شفيق ذلك وقد تملكته الدهشة، عاد الغلام ضاحكا وبيده ورقة مالية يهش بها أمام وجه شفيق ويمسك بذراعه مرة أخرى وبشدة كيلا يهرب منه..

نادرا ما كان يعثر على فريسة سهلة مثل شفيق يمارس أمامها تفاصيل رجولته، الآن يستطيع أن يأمر وعلى شفيق أن ينفذ، أول ما سيفرضه على شفيق هو تحمل نفقات يومهم عند أم السيد.

انحرفا يسارا ومرا بجانب تمثال الحصان الأبيض شعار المحافظة الذي يتوسط الميدان، عبرا الكوبري وانطلقا في الشارع المواجه الذي ينتهي بنفق يمر أسفل شريط القطار، فيتخذا طريقهما ناحية اليمين حيث موقف السيارات:

- إحنا رايحين فين؟

- تعالى بس يا عم شفيق..

جـره من ذراعـه واخترقا صفوف السـيارات، بين صبية في مثل أعمارهم أحدهم ينادى باسـم جهة سـيارته، وأخر يغسـل سـياره، وثالـث يوزع مشـروبات على رواد الموقف تعدها له سـيدة شـابة اقتطعـت جـزءا جانبيا مـن إحدى حـارات الموقـف، ونصبت فيه موقد النار عليه إناء ضخم يحوى ماء يغلى باسـتمرار، فتحمل منه لإعداد الشاى للسـائقين الذين يجلسون لاحتسائه وللإئتناس بها، بالرغم من دمامة وجهها وذلك الحول الموجود في عينيها إلا أنها كانـت تتميز بجسـد نافـر التفاصيل وأسـلوب يتسـم بالميوعة مما يُكثر من روادها خاصة من فئة السائقين..

عبـرا موقف السـيارات وبعد دقيقة من السـير تحدث «الهوى» إلى شفيق وهو يشير بيده:

- خلاص وصلنا.. قهوة أم السيد..

يتوقف شـفيق مرتبـكا، أخرجـه الفتى من اضطرابـه وهو يجره بشـدة حتى يصلا المقهـى.. يجلس الهوى بينما يظل شـفيق واقفا مترددا..

لـم يكن ما يفعله شـفيق بجديد علـى صاحبة المقهى أو فتياتها، فبدأت الطقوس المعتادة مع أمثاله..

انتفض شفيق عندما طوقته يد في رفق لم يعهده، نظر مشدوها، فإذا بها فتاة المقهى:

- اقعد يا اسمك أيه.. اقعد..

فتاة لدنة طرية ترتدى ثوبا من قماش السرسيه، تتثنى داخله بميوعة تتقاطر منها وهي تضغط عليه برفق كي يجلس..

جلس شفيق مرتاعا مما يحدث والفتى يضحك بشدة على ارتباكه، مالت الفتاه بصدرها على شفيق حتى كادت تغمر وجهه بأكمله:

- تشرب أيه.. يا اسمك أيه؟

لم ينطق بكلمة ونظر ناحية «الهوى» لينقذه مما هو فيه، فقال الغلام:

- لأه يا ستى، إحنا عايزين ناكل.. أصله جعان..

ضحكت الفتاة بدلال أسال لعاب الحاضرين الذين أدركوا أنها تنصب شباكها حول صيدها الجديد، هذا ما حدث معهم من قبل وبنفس التفاصيل، ضمت الفتاه شفتيها المكتنزتين كمن يداعب طفل:

- جعان أيه بالضبط يا كتكوت؟

لم يدرك شفيق ما ترمى إليه الفتاه.. فتحدث بسذاجة:

- عندكم أيه؟

أجابته بدلالها المفتعل:

- دقيقة واحدة..

انصرفـت الفتاة متعمـدة أن ترجرج مؤخرتها فـي ميوعة لإثارة الوافد الغر وبعد خطوتين تقريبًا التفتت نصف التفاته لتشـاهد تأثير ما فعلت..

تطبق ما تعلمته من أم السيد:

- جمالـك عـادى، لكنه ممكـن يظهـر بالحـركات والغمزات وعض الشفه، تبقى من بتوع الرمش والحاجب يا بت..

كان شـفيق يرنـو نحـو أصابعه التـي تعبث في لا شـيء بانفعال ملحـوظ، لا يعلم لماذا اسـتجاب وانقاد خلف هـذا الغلام، دارت في رأسـه أفكار كثيرة متلاطمة أكثرهـا وضوحا هي ترك المكان.. يجري مسـرعا.. يصـل إلى أي مـكان أي جزء في العالم سـيكون أرحم به وأرفق مما هو فيه الآن..

أفاقـت يد الفتاه شـفيق، وهي تمس أنفه، من شـروده، وضعت طبق فول وآخـر يحتوى على بقايا طماطم وخيار ورغيف من خبز أسـود، حملت بيسـراها الصينية التي كانت تحمـل عليها الأطباق وداعبت أنف شفيق مرة أخرى بيدها اليمنى..

يرتعـد شـفيق مما يحـدث، لم يقابـل مطلقا مثل ذلـك الإغراء ولـم يتصوره، كان يتخيل في نفسـه أن النسـاء لا تثيـر بداخله رغبة كمـا تفعل مـع الآخرين ولكنه الآن اسـتيقن أن كل هذا كان وهما، هـذا هو الاختبار الحقيقي الذي يوضع فيه للمرة الأولى، سيفشـل

بطبيعة الحال، فلم يجد في داخله أية بوادر للنجاح، عموما لم تحزنه فكرة الفشل..

سحبت الفتاة يدها وهي تضغط على جانب كتفه المجاور لها واقتربت بشفتيها تنفخ بهدوء في أذنه وهي تحدثه في رقة:

- ما تاكل يا اسمك أيه..

- شفيق..

ضحكت مستبشرة، فقد بدأ يتكلم، إنها تطبق ما تعلمته من فنون التعامل مع الرواد الجدد على الوجه الأمثل، كانت المرحلة التالية أكثر جرأة وخطورة، لكنها تعلمت أن تفعلها بشكل عفوى وكأنها جاءت وليدة اللحظة.

اقتربت بجسدها حتى التصقت به، فقد وقفت في ذلك الجزء الصغير جدًّا الموجود بين شفيق والمنضدة، تركت الصينية تسقط على أرض المقهى الترابية واحتوت وجهه بين كفيها..

- ها تآكل والا أأكلك؟

لم تترك لشفيق فرصة للإجابة، استدارت وأخذت قطعة صغيرة من الخبز غمستها في طبق الفول، ثم أكملت استدارتها بشكل مفاجئ حيث جعلت ظهرها في مواجهة شفيق.. ثم.. جلست بمؤخرتها فوق ركبتيه وأدارت نصفها العلوى لتواجهه، وهي تضع له اللقمة المغموسة بالدلال في فمه..

كاد شفيق أن يغيب عن الوعى.. لم يسمع تعليق «الهوى» الذي كان يأكل ويغض الطرف شأنه شأن جميع الحضور الذين كانوا يدركون طبيعة ما يحدث:

- قشطه يا عم.. أكلت الجو..

ما كان تعليق «الهوى» إلا تملقا للفتاه مظهرا أنها قد حققت نجاحا ملحوظا وهذا التملق كان يعرف أنه سوف يؤتى ثماره بعد فترة عندما تختار له غرفة على مستوى..

ضحكت الفتاه، ووقفت تحك ظهرها في صدر شفيق، ثم التفتت نحوه متصنعة التعثر حتى ارتمت بصدرها النافر فوق صدره، ومست خده الأيمن بوجنتها الملتهبة وصاحبت ذلك بآهة ممطوطة نبعت من بئر دلالها..

ارتبك شفيق بشدة وبلا إرادية رفع يديه وأمسك بالفتاة من أعلى ذراعيها بشدة حتى لا تسقط غاصت أصابعه في ذلك اللحم الطري حتى إن الفتاة أطلقت هذه المرة آهة توجع حقيقية، فوقفت مرة واحدة وحملت صينيتها ولم تنسى أن تضع اللمسة الأخيرة في هذه المرحلة فمدت يدها وداعبت بها أنف شفيق ثم سحبتها بهدوء وهي تمررها فوق شفتيه.. و....

وتركت المكان، فقد شعرت ببداية رغبة جامحة بداخلها وهذا كان يخالف ما تعلمته، فعليها ألا تنساق خلف نزواتها، عليها أن

تقوم بصهر الزبون لا أن تُصهر هي، انتهت المرحلة الأولى حيث تذويب الوافد الجديد وإشعال داخله ..

أما المرحلة التالية فكانت أقل إثارة وأكثر جدية، حيث تأتي الفتاة لتتقاضى الأجر الكامل والذي يشمل مصروفات الطعام والشراب وأجر الدخول من الباب الخلفى، ثم تذهب وتعود حاملة «حجر جوزه» جديد تضعه بدلا من المنتهى الذي تفرغ محتواه وتقربه من وجه الزبون لتضغط به على أحد خديه صانعة ختم أسود مدور من أثر الفحم، كانت هذه عادة إشارة للزبون كي يدلف من الباب الآخر..

شعر شفيق بالغثيان.. تذكر والديه.. البئر.. جف حلقه، قذفه «الهوى» بقطرات ماء جعلته يعود إلى الواقع وإن كان عاجزا عن الكلام:

- معاك كام؟

لم يكن شفيق قادرا أبدًا على تحمل ما يحدث، إن كان قد وصل إلى هذه المرحلة فهذا يعود إلى جهله التام وعدم قدرته على تأويل ما يحدث حوله:

- معاك كام يا شفيق؟

يقف شفيق كمن يستعد لإخراج المال من أحد جيوبه.. لم يشعر بنفسه إلا وقد أطلق ساقيه للريح سمع خلفه صوت أجش:

- هاتوا اللي قاعد..

هـرب مـن المكان بكل مـا أوتي من قوة.. لم يكـن أحدا يتبعه، لكنه لم يتوقف لحظة واحدة، لم يهدأ إلا بعدما وصل إلى شـاطئ ذلـك النهير الذي يشـق المدينـة إلى نصفين أعطى ظهـره للجميع وظل يتابع الماء وكأنه يحصي عدد قطراته أو تلك النباتات الطفيلية التـي تنمو علـى جانبيه، الحقيقـة أنه لم يكن يرى أي شـيء، غرق بين شـلالات متلاطمة من الأفـكار حتى توقف عنـد جزئية أثارته قليلا.. فعندما فعلت فتاة المقهى ما فعلته معه كان يجب أن يحدث بداخلـه أمر ما، كأن يشـتعل داخلـه، تتحرك النيـران، يقذف بركان الشـباب حممه ولا يتوقف إلا بعدما يرتوي من دلال هذه الفتاه أو غيرهـا، لكـن كل ذلك لم يحـدث، كل ما فكر فيـه كان الهرب من المـكان، لم يجد بداخله إجابة شـافية، مط شـفتيه ووضع يديه في جيوبـه.. تعجب مما يحدث له.. تذكر قـول والده أن المصائب لا تأتي مفردة أبدًا.

شـعر بارتباك، هل ينتظر متاعب أخـرى؟ لكنه تذكر ما قالته امه لترد على والده «ما ضاقت إلا ما فرجت»..

لم يشعر بذلك الذي اقترب منه ووقف بجواره ينظر نحو صفحة الماء هو الآخر متحدثا إليه بهدوء ورزانـة:

- ما تفكرشي كتير.. كله بيعدى..

التفت شفيق نحو مصدر الصوت الذي اقتحم عليه خلوته، فإذا به أمام شاب في الثلاثين من عمره، يرتدى نظارة طبية أعطته وقارا

لا سيما وأنها على وجه يميل إلى اللون الأبيض وشعر أسود يميل إلى الأصفر مسحوبا ناحية اليمين بمهارة وتأنق.

بحث شفيق بداخله عما يعلق به فلم يجد، فآثر الصمت، فتابع الأخر حديثه بشكل ودود:

- لقيت نفسى بأقف جنبك كإنى أعرفك من زمان..

- أنا غريب..

- واضح.. لكن باقولك فيك حاجه شدتنى..

تلك التلقائية التي كان يتحدث بها جعلت شفيق يشعر نحوه بنوع من الارتياح بالإضافة إلى أسلوب الحوار المعتدل، فقد كان يحتاج إلى ما يمحو به أثار الساعات الماضية من حياته.. أخرجه من شروده سؤال مجاوره:

- شكللك عايز تشتغل؟

- ياريت..

- أنا ممكن ألاقى حاجه تناسبك.. أنا أعرف أصحاب شركات كتير..

شعر شفيق بانفراج الأزمة فاضطرب داخله من فرط سعادته، غمره الآخر بابتسامة عريضة ودفء وهو يضيف وكأنه يجيب على سؤال بديهى:

- أنا الدكتور رمزى فؤاد.. دكتور أمراض تناسلية وعقم..

شعر شفيق بنوع من الزهو، فها هو طبيب يقف إلى جواره ويحدثه ببساطة واحترام، ابتسم شفيق للمرة الأولى منذ أيام، توجه إلى الدكتور رمزى يصافحه بطريقة اعتقد أنها خاصة بعلية القوم، صافحه رمزى وهو يبتسم في خبث معلقا:

- ياه.. إيدك باردة قوى..

حاول شفيق أن يسحب يده ولكن رمزى ظل ممسكا بكفه يضغطه برفق مما جعله يشعر بالارتباك فابتسم رمزى وترك يده وهو يكمل:

- آخر مره رحت فيها للدكتور إمتى؟

- مش فاكر.. ليه.. فيه حاجه؟

- إنت طبيعى جدًّا.. ممكن تكون الحالة دي من القلق.. عموما لو عندك أي شكوى أنا تحت أمرك..

بحث شفيق بداخله عن أي علة، لكنه لم يجد.. كان لا يعانى من أي مرض عضوى، ولكنه الأن شعر بأنه يجب أن يتحدث مع رمزى أطول فترة ممكنة من أجل توطيد العلاقة للحصول على العمل:

- أيه.. زى الحصان؟

اضطرب شفيق وهو يجيبه:

- مش قوى..

- لا.. أنا عايزك زى الحصان.. عشان الشغل..

لم يجد شفيق ما يعلق به فوقف صامتا مرة أخرى، فأكمل رمزى حديثه بتلقائيته:

- أنا رايح المستوصف.. تعالى معايا ونكمل كلامنا..

سار شفيق إلى جواره وهو يفكر بسرعة في أي موضوع يتحدث به قبل أن يخسر ذلك العرض السخي، تذكر ما كان يفكر فيه منذ دقائق وهو لماذا لم يُثار وقتما فعلت معه فتاة المقهى ما فعلته، شعر بأن هذا قد يكون موضوع مناسب للحوار فتحدث إلى رمزى طويلا، ذاكرا له مشاهدته للنساء عرايا حول «البئر» وعند «الراس» وانتهى بما حدث له اليوم..

تصنع الطبيب رمزى فؤاد الاهتمام بالحديث وهو يسير من شارع إلى آخر وشفيق يلهث خلفه، عند المنعطفات يجذبه من يده ليدله على الطريق، في كل مرة يمس فيها يد شفيق كان يتحسس أصابعه وكفه فيسحب شفيق يده بسرعة وخجل العذارى، رمزى يبتسم ويعاود الحركة مرة أخرى وهو يعلق:

- إنت أكيد ما عندكش أصدقاء..

حقًّا لم يكن لدى شفيق أصدقاء، كان دائمًا وحيدا..

ترك يده في يد رمزى كتدعيم للصداقة الناشئة.. شعر رمزى ببداية ارتياح شفيق الذي بدأ يلين في يده فوقف وغمره بابتسامته العريضه:

- دلوقتى نوصل المستوصف وأكشف عليك.. كل شيء له علاج..

بعد دقائق وقف رمزى أمام مبنى عتيق على الجانب الأيمن للطريق الموازى للنهير، المبنى على ضخامته لا يرى له شفيق غير باب صغير يختفى معظمه خلف أغصان شجرة ضخمة، إلى جوار الباب يجلس عسكرى في ملابس سوداء يفحص الوافد الجديد بنظرات متوجسة..

وقف شفيق حائرا لحظات وهو ينظر نحو هذا المبنى فإذا به يشاهد لافتة ضخمة مكتوب عليها «كاتدرائية نوتردام» تزاحمت الأفكار في رأسه، لم يستطع أن يُمسك بطرف أحدها خاصة وأن رمزى جذبه من ذراعه في ود:

- هاتقف كتير.. تعالى..

دلفا من الباب، هبطا خمس درجات تقريبًا، نظر شفيق حوله.. حديقة صغيرة محاطة بعدة مبان، المكان منعزل تمامًا عن العالم، فقد شعر شفيق فجأة بأن الحياة توقفت، حتى أصوات السيارات في الشارع المجاور تلاشت، ملأت أنفه رائحة جديدة عليه خاصة بهذا المكان..

المبانى من كل الاتجاهات مرتفعة عدا مبنى في الجانب الأيمن من طابق واحد دخله رمزى وخلفه شفيق، المبنى قديم وتنمو على جدرانه الرطبة طحالب بنية وخضراء..

صالة واسعة لها أرضية من الخشب وفي المواجهة تجلس ممرضة ترتدى زى رمادى وعلى صدرها صليب من الفضة، توجه رمزى ناحية الممرضة يحدثها بصوت منخفض..

لم يشعر شفيق بكل ما يحدث حوله، فقد أصبح كالتائه، إنها المرة الأولى في حياته التي يخرج فيها من القرية، وهي المرة الأولى أيضًا التي يدخل فيها مثل هذا المكان وتعرض عليه صداقة بهذا الشكل.. و..

عاد رمزى وسحبه من يده، دخل به إلى حجرة جانبية من نفس الطراز تحتوى على مكتب صغير وسرير في جانب..

طلب رمزى من شفيق أن يتمدد فوق السرير ليكشف عليه، الوقت يسمح الأن قبل أن يأتي أحد المرضى، جلس شفيق على حافة السرير المرتفع عن الأرض، قدماه لا تمسان الأرض ويتحركان في الهواء بلا هدف..

اقترب منه الطبيب طالبا منه أن يخلع ملابسه كي يكشف عليه، ارتبك شفيق لكنه أطاع الأمر وخلع بعض ملابسه، بدأ الطبيب يمارس أمور تقليدية في الكشف مستخدما السماعة على الصدر والبطن، استمر لحظات ثم وضع كل ذلك جانبا..

بدأ الطبيب يمد يده إلى أماكن حساسة، في اللحظات الأولى ارتاب شفيق في الأمر لكنه لم يصدر أي رد فعل، ولكنه بعد عدة

محاولات من الطبيب هبط بسرعة من فوق السرير وبدأ يرتدى ملابسه في صمت، اقترب منه رمزى في شبه تذلل:

- شفيق.. أرجوك، إدينى فرصة أفهمك.. لازم تجرب الأول وبعدين..

دفعه شفيق جانبا وهو يرتدى آخر قطعة من ثيابه، لكن الطبيب اقترب منه مداعبا أكثر:

- شفيق يا حبيبي، هاخليك أحسن واحد، أديلك فلوس، وأشغلك، بس جرب..

كان يتحدث ويده تمتد إلى أكثر من موضع بينما شفيق يدفعه وهو يعلق بصوت منخفض:

- ما تحاولش معايا.. ما فيش فايده..

- إنت بتقول كدا بس لأنها المرة الأولى.. لكن بعد كدا.. صدقنى يا حبيبي..

عض رمزى فؤاد على شفتيه ثم أدار ظهره إلى صدر شفيق يضغطه بهدوء في دورة ما بين الصعود والهبوط واليمين واليسار، لكن شفيق تراجع وتفاداه وهو يعلق بصوته المنخفض:

- أنت ما بتفهمشى.. باقولك النسوان العريانة ما بتأثرش فيا..

- إدينى فرصه أشرح لك يا شفيق..

توجه شفيق ناحية باب الغرفة، ولكنه تسمر حينما سمع رمزى يقول:

- ما تنساش إنك تحت إيدى يا ولد..

أدرك شفيق أنه في مأزق حقيقى، مكان منعزل عن العالم، عسكرى قابع أمام الباب، تذكر الهوى وحديثه عن الشاويش الذي يستطيع تلفيق أي تهمة في لحظات..

التفت شفيق، شاهد الطبيب وقد خلع رداء الذل والمهانة وارتدى رداء قاسى عنيف وهو يقترب من شفيق في هدوء ويمد يده يراوده:

- مش هاتخسر حاجة يا شفيق، وبعدين هاتحقق لي مطلب مقابل الوظيفة اللي هاوفرها لك.

هبط على شفيق غضب رهيب لم يصل إليه من قبل، قرر في داخله أن ينهى ما يحدث وإن ارتكب جريمة..

سمعا معًا صوت دقات على باب الحجرة، ثم صوت الممرضة يأتي واهن:

- في حاله منتظرة يا دكتور..

ظهر الضيق على وجه الطبيب لحظة ثم ابتسم.. بينما هدأت نيران الغضب داخل شفيق وشعر أنها يد العناية الإلهية تحفظه إلى آخر لحظة، أخرجه الطبيب من شروده:

- انتظرنى يا شفيق دقيقه في الصالة وبعدين نكمل.. ماشي يا حبيبي؟

تمنى شفيق في هذه اللحظة أن يفرغ كل غضبة من الأيام ورفضه لكل ما حوله على شكل لكمات يهشم بها أنف هذا الطبيب..

فتح رمزى الباب بتلقائية، واستقبل المريضة وطلب من شفيق أن يجلس إلى جانب الممرضة جلس شفيق لحظات إلى جانب الممرضة ثم استجمع شجاعته ووقف، تجول في الصالة بهدوء حتى لا يحدث صوتا على الأرض الخشبية، توجه إلى الممرضة يحدثها بصوت منخفض خشية أن يسمعه رمزى:

- هاشترى جرنال على ما الدكتور يخلص..

- معايا جرنال الجمهورية..

- لا.. أنا هاجيب الأخبار..

خرج شفيق بهدوء وعبر الحديقة الصغيرة وارتقى السلالم، وسأل العسكرى بهدوء:

- فين بتاع الجرايد..

أشار العسكرى إلى ناحية ما، سار شفيق عدة خطوات، انعطف إلى شارع جانبى حتى لا يراه العسكرى، جرى بسرعة جنونية متخذا طريقه إلى محطة القطار..

بمجرد وصوله وجد قطار يتحرك فقذف بنفسه داخله، يعرف بعد ذلك أنه قطار بورسعيد إسكندرية، فيقول في نفسه:

- إسكندرية.. إسكندرية..

وهكذا استقر به الحال هناك، يعمل في أي مكان ويمارس أي عمل رافضا العودة إلى قريته..

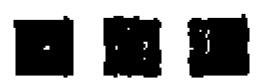
ما أن التحق بعمل يقتات منه وأعاد ترتيب أموره، حتى أرسل إلى والديه يطمئنهم عليه ويعدهم أنه سوف يعود قريبا حالما يسمح له عمله الجديد..

بعد ثلاثة أشهر تقريبًا يعود، لم يكن اللقاء حارا بطبيعة الحال، إلا من بعض انفعالات صدرت عن والدته وإن لم تكن بالشكل الأمثل..

يقضي يومين ثم يعود إلى الإسكندرية لا يهبط إلى القرية إلا أسبوعا واحدًا كل عام، هذا الأسبوع لم يكن محددا إلا بهوى شفيق نفسه، فقد كان معوض وزوجته ينتظرانه دائمًا..

نفوسه لم توافق يومًا على أن يقسو معوض على ولديهما حتى لا يذهب ولا يعود.. رضيا بالأمر الواقع:

- الولد كِبر وبقى راجل يا معوض..



الآن يجلس معوض في صالة منزله متأملا ومنتظرا قدوم شفيق، خاصة في يوم مثل هذا حيث شـدة البرودة، فقد تخيل أن هناك في الإسـكندرية سيول طاردة قد تجعل شفيق يفضل العودة، لكن هذا ما لـم يحدث..

تقترب نفوسـة حامله طعام العشاء، جلسوا يتناولون لقيماته في هدوء.. يطبق الصمت على المكان إلا من صوت المضغ والبلع.. لم تجد نفوسه ما تقوله، فعادت إلى موضوعها الأول:

- أكمـل لـك بقى حكاية البنت ناهد، أصلها مـن صغرها بنت بتاع كُهن، العيلة لسه مسح وتقول عايزه أتجوز..

- هو حد طلبها للجواز وأهلها رفضوا؟

تجلـس معتمدة علـى ركبتيها وأزاحت طبقـا الطعام في جانب ومدت يدها تجمع بقايا الطعام وهرى العيش من أمام معوض، ثم اعتدلت واقفة:

- يا خويا.. ومين يسـأل فيها ويسيب العرايس اللي بجد؟.. لما أعلق على الشاي..

تختفي نفوسه خلف سـتارة تحتوى على عدة ثقوب، متسـخة مـن أثـر يدها التي تمسـحها فيها باستمرار في حـال خروجها من المطبخ..

يشاهدها معوض من الثقوب.. وهو يتذكر أن في مثل هذه الليالي الباردة وقبل إصابته كانا يقضيان لحظات دفء تذيب أوصالهما..

تذكر أيام الشباب والذوبان الحقيقى.. لم يكن وقتها قد تزوج من نفوسه كان ذلك الشاب الممتلئ الصدر، لم يكن لديه ما يفعله سوى طاعة والده العمياء في الحقل أو في خدمة البئر، وفي الشتاء يجلس مع عطية الشحات في حجرة القصب.. أما ليالى الصيف فكان يجلس في أحد أركان مقهى حسن النجار، في عهدها الأول، المقامة على الجسر يقضى مع أقرانه الليالى محاولين بشتى الطرق الاستمتاع بالمتاح لديهم من سُبل على قلتها.. يذهبون بأحلامهم تارة خلف حكايات ومغامرات البعض، ويعودون مع أحزان وهموم الفقر..

إلا أسبوعا واحدًا في آخر شهر أغسطس «في عز الصيف» والمولد الذي يقام في القرية المجاورة لهم «ميت دمسيس»، وهو مولد خاص يحتفل فيه سنويا بالقديس «ماري جرجس» ويطلق عليه العامة في قريتنا والقرى المجاورة مولد «أبو جرج»..

كان معوض وأصدقائه يذهبون يوميا إليه من بعد آذان العشاء وحتى أذان الفجر، وكان حدثا يغفره لهم أولياء أمورهم.. باعتباره موسما سنويا للبحبحة.

يتأنق معوض ويرتدى جلبابه دون أن يدخل أزراره في عراها فينكشف صدره المنثور عليه بعض شعيرات مجعدة، يدفن قدميه

في حذائه بلا جورب، يستعير تلفيحة والده الصوف ليضعها على كتفه رغم حرارة الجو، يترجل مع أقرانه إلى «ميت دمسيس» عن طريق جسر النهر ذلك الطريق الذي يتوازى باستمرار مع النهر، كثيف الأشجار مظلم، لا صوت فيه سوى الجنادب وحدآن الليل التي تسكن أشجاره، أو نقيق الضفادع إن كانت المياه مرتفعة في أحد الجداول المتفرعة عن النهر، تضاف إلى ذلك الأساطير المنسوجة حول الطريق.. كل ذلك كان يتجمع لينشر داخل الأجساد الشابة رهبة وترقب، تأبى نفوسهم أن تعلن عنه صراحة فتتحامى ببعضها البعض..

يتبدد ذلك كله وتعلو الصيحات حال وصولهم أطراف القرية حيث المولد بكل تفاصيله، الأضواء المنتشرة في كل مكان والأصوات المرتفعة والصياح والصراخ.. هذا أمام سيرك وذاك أمام مسرح.. وثالث أمام مطعم يقدم أشهى المأكولات والمشروبات المباحة وغير المباحة..

الطرق نفسها كانت مكدسة بكل أصناف البشر، أغلبهم وافدين من مسافات بعيدة يسكنون القرية هذا الأسبوع فقط، يمارسون فيه ما لذ وطاب، حيث إنفاق ما ادخرْته أيديهم طوال العام..

معوض ومن معه يتجولون ذهابا وإيابا طوال الليل بلا تعب أو كلل يشاهدون السلع المعروضة.. لعب أطفال من البلاستيك على شكل حصان يجر عربة أو عروسه.. بائعو الحمص والحلوى،

وكانا هذين الصنفين أكثر ما كان يحملهما العائد من المولد إلى ذويه، بالإضافة إلى الأرغول للصبية والطبلة للبنات..

كثرة التجول كانت تتيح الفرصة لمشاهدة الحِسان صاحبات الشعر المكشوف والصدور النافرة والمؤخرات الطرية التي كثيرًا ما كانت تلهب الفتية حال احتكاكهم بها في الزحام..

زوجة عطية الشحات وهي فتاة حديثة العهد بالزواج كانت تذهب بصحبة زوجها إلى المولد يعرضون بضاعتهم من المش والجبن القديم والفطير تصنعه الزوجة يوميا بمساعدة أمها المسنة وتحمله إلى عطية ليبيعه وتجلس إلى جواره حينا تساعده أو تحل محله حالما يذهب لقضاء حاجته التي كثيرًا ما كان يدخرها حتى وصول زوجته، كانت تجلس بسعادة طفوليه مبهورة بالملابس وألوان الشعر والذهب على الصدور يتأرجح.. تبتسم وهي وحيده إلى جوار البضاعة، لم تشعر بذلك الفتى الوافد الذي اعتقد أنها تبتسم له وهو يطلب فطير وجبن، جذبتها السلسلة الذهبية المدلاة على صدره المكشوف، كان نحيلا، شعره كثيف خشن جعله ناعما بكثرة الزيوت، وتركه يتدلى على كتفه..

كان من ذلك النوع الذي يتوهم باستمرار أنه محط أنظار الفتيات، وهن دائمًا محور حديثه فيرتدى بشكل ما ويتحدث بطريقة معينة ويسير بطريقة خاصة ويتابع آخر قصات الشعر، وغير ذلك الكثير من أجلهن.

افترسها بنظراته الجريئة، مد يده يتناول اللفافة، أمسك بيد السيدة وضغطها.. سحبت يدها بسرعة وهي تنهره رافعة صوتها.. فر هاربا حتى ابتلعه الزحام..

تملكها غضب شديد تورد وجهها على إثره.. شاهدها زوجها وقد تعكر صفوها، أوقدت النيران بداخله وهي تحكى له.. ارتعد وقرر أن يبحث عن ذلك الشاب:

- يا ليلة مش فايته يا ولاد.. دا هايبقى يومه أسود من قرن الخروب..

استعان أولا بأولاد قريته ليثأروا لكرامة زوجته التي تم اعتبارها كرامتهم جميعًا..

كانت الخطة تقضى بأن تسير الزوجة وحيدة باحثة بين الرؤوس عن ذلك الشاب ومن بعيد يتابعها زوجها عطية والشباب وعلى رأسهم معوض..

استمر البحث ساعة ونصف تقريبًا حتى اقتربت السيدة من الشاب الذي وجدته يجلس هناك أمام خيمة مقامة في منطقة الخيام، بمنطقة طرح النهر.

اعتقد الشاب أن حيلته قد أتت بنتيجة، فها هي الفلاحة الحسناء تبحث عنه حتى تقضى معه ما تشاء من المتعة والسعادة.. ولم لا وهو الشاب الوسيم القادم من المدينة وهي الريفية البسيطة التي

تشبه القطة تريد أن تتمسح في قدم ضيف وافد، كان يعتقد ذلك في قرارة نفسه..

غمز لها بطرف عينه بما يعنى أن تتبعه وانطلق والسعادة تحلق فوقه حتى وصل أطراف القرية، وفي مكان قصى على شاطئ النيل حيث الأعشاب الكثيفة التي تنمو بين أشجار الصفصاف والجازورينا، اندس الشاب وسط نباتات الحلفاء الجافة على هدى بقايا ضوء مُرسل عن نصبات المولد..

جلس الشاب وانتظر لحظات وقد استعد لقضاء ليلة مع سيدة ريفية طالما حلم بها، سمع خطوات تقترب.. التهب داخله، تأمل الجسد الذي لا تظهر تفاصيله بوضوح حيث يأتيه الضوء من الخلف، فإذا به عطية الشحات وخلفه معوض وأربعة آخرين..

نال لحظتها ما لم يحلم به طوال حياته من لكمات وضربات، تُرك عاجزا عن الحركة..

عادت زوجة عطية إلى منزلها ولم يُسمح لها بالذهاب إلى المولد مرة أخرى..

- زمان كنا رجالة ووقفنا معاك يا عطية.. النهارده بنتك هربت، آه يا متعوس.. مين يقف معاك ويرجعها.. ومين يرجع كرامتك وكرامة أهل البلد..

كان ذلك مجمل ما يفكر فيه معوض في هذه اللحظة ثم يعقب:

- الدنيا اتغيرت.. ما حدش عارف هاترسى على أيه..

أتت نفوسه حاملة طبق أبيض عليه كوبين من الشاى، تفرست ملامح معوض لحظات ثم قالت:

- أنت بتكلم نفسك يا راجل..

- باقول الأمور ملخبطه.. وما ليها أول من آخر..

- والله أنت اللي ما حد عارف لك أول من آخر..

- ليه بس كدا؟

- بير غويط.. أنت يا معوض..

يبتسم معوض ولم يعقب.. ذهب خلف أفكاره.. دائمًا ما يدع الأمور معلقة دون نهاية شافية في حال سؤاله عن سرائر نفسه..

الصمت ملاذه الآمن، يشعر بأن الآخرين يرصدون تحركاته، يفسر ذلك برغبتهم الدائمة في تقصى أسرار علاقته بالبئر، ينطوى على نفسه، يخفي عن الجميع حتى زوجته وولده أفعاله وتصرفاته وحتى أفكاره..

باستمرار يتوقع الهجوم عليه أو على بئره، شعور قاتل يؤرقه، أمنيته الدائمة أن يمر يومه في سلام، دون مشكلات أو عقبات، أو بالأدق تمر حياته كلها دون قلاقل تذكر، ويتسلم ولده البئر كما هي شكلا ومضمونا..

كان أشد ما يخشاه هو أن يُذكر يومًا ما بأنه السبب في الدمار الذي لحق بالبئر، فما كان ينقضي يومًا بسلام إلا وينقضى معه

جزءا من قلقه، لكنه ما يلبث أن يتذكر أن ولده لم يؤهل بعد كي يتسلم رسالته، فيعاوده الاضطراب إلى أكثر مما كان عليه..

تعصب معوض لبئره جعله في شك دائم، كان يخشى الاحتكاك بأحد حتى لا تُثار أية قضايا مشتركة تكون البئر، بلا شك، موضوعها فكان يفضل الصمت أو اللجوء إلى كوخه.

حتى مع ولده شفيق غالبا ما كان الوضع يزداد سوءا كلما وصلا إلى حوار ينتهي بالصمت، شفيق يدرك أن والده يحمل سرا، وحاول أكثر من مرة النفاذ إلى أعماقه لكن دون جدوى.

حقيقة الأمر أن معوض لم يبخل على ولده، إنما كان يسير معه بأسلوب معين كي يؤهله لحمل أمانة السر.. لكن فشله في هذا الإعداد لتسرع شفيق وعدم صبره من ناحية، وهروبه مؤخرا من ناحية أخرى، ما جعل معوض يتراجع ولا يبوح بسره إليه..

كانت الشائعات كثيرًا ما تنطلق حول «المطلب» فقد قيل «دائمًا ما يبدأ الحديث بـ قيل» أنه ذات يوم حار وفي وقت الظهيرة، شاهد أحد فلاحيّ المنطقة المجاورة لـ «المطلب» عجل ضخم يقف إلى جوار البئر ثم يهبط ليشرب من ماءها، اقترب الرجل للحاق بالعجل، الهارب بالتأكيد من صاحبه فوجد البئر خاوية.. ذُهل الرجل وتاه عقله.. قيل عنه أن الشمس قد أصابته بضربتها فذهب عقله..

هدأ الأمر.. وبعد سنوات اشتعل مرة أخرى عندما تصادف أن ذهبت سيدة إلى «المطلب» قبيل صلاة الفجر خشية أن يراها أحد،

خلعت ملابسها واستدارت لتهبط إلى البئر.. شاهدت ديك أبيض ضخـم وصفته فيما بعـد بأنه في حجم الخـروف، أصابها الرعب، حملت ملابسها وأسرعت عارية تفر من المكان وهي تتعثر وتسقط على وجهها محاولة أن ترتدى أي قطعة من ملابسها..

كان معوض وأسلافه يتقبلون مثل هذه الشائعات تحت دعوى أنها إحدى صور البركة التي تتمتع بها البئر..

بعـد تكرار مثـل هذه الأمور في عهد معـوض اضطر لأن يؤكد كذبها حتى لا تعزف الزائرات عن البئر..

سـبب آخـر جعلـه يقسـم علـى أن كل ما يقـال ما هـو إلا إفك وبهتان.. ذلك أنه انتشـرت ذات يوم شائعة لا يعرف مصدرها على وجه الدقة، فلم يغمض له جفن وهو يردد في صمت الليل:

- لـو أعرف بـس أصل البـلا دا، كنت قدرت أوقفـه عند حده، وبأى طريقة.

لكن هذا ما كان يسـتحيل عليه معرفتـه، لأن حال قريتنا أن تبدأ الشـائعة بخبر بسـيط قد يكون جملة عابرة لم يُقصد بها أي شـيء، لكنها سريعا ما يتم تأويلها لأكثر من شكل وتقلب على عدة وجوه، وفـي كل مرحلة يضاف إليهـا طبقات، وتحابيش كما يقول البعض وسرعان ما تنمو وتندفع كأمواج عاتية..

كانـت الشـائعة التـي انتشـرت مؤخـرا حـول «المطلـب» وإن اختلفت التفاصيل الدقيقة إلا أنها اتفقت على مضمون واحد:

- تحت أرض المطلب كنز..

يومها لم تنم القرية، فقد ثارت العاصفة، راود الجميع، كل على حده، حلم واحد وهو حلم الثراء، فالجميع قرر أن يبذل المستحيل للحصول على الكنز:

- بقى معقول فيه كنز تحت «المطلب» ..؟

- ومش أي كنز..

- بيقولوا إنه مش تحت «المطلب» وبس..

- تقصد أيه؟

- موجود في أكتر من مكان تحت البلد..

- الأصل تحت «المطلب» ..

- يبقى بينا على «المطلب» نحفره..

- طب ومعوض؟

- ياخد نصيبه من الكنز..

- إن كان عايزه كان حفر وخرجه..

- ما يقدرش لوحده.. كلنا لازم نكون إيد واحده.. وقتها نقدر نطلع الكنز..

- يبقى بينا على «المطلب» ..

- هانقدر..؟

- زمان حفرنا القناة ومن غير كنز..

- القناة كنز برضه.. بس مش لينا..

انطلقت مثل هذه الأقوال في قريتنا، وجدت من ينفخ فيها، اشتعل أوارها وعلا لهيبها، في يوم الجمعة التالى وأمام المسجد الكبير تجمع أهل القرية مجموعات، ما كان لهم حديث غير الكنز الموجود تحت بئر معوض عبد الفتاح، ثارت عقول القوم وعلت أصواتهم ولكنهم لم يبرحوا أماكنهم حتى رفع أحدهم صوتهم:

- طب وإحنا واقفين ليه.. ها نفضل نتكلم من غير ما نتحرك..

- كلنا نطلع على المطلب..

تحركت الجموع تاركه الساحة أمام المسجد واتخذت طريقها صوب الجهة القبلية للقرية..

بعد دقائق من التحرك بدأ العدد يتناقص، أحيانًا ينزوى أحدهم ويدلف من باب منزله في صمت وأحيانًا تصدر تعليقات:

- أتغدى وأحصلكم..

- أشق على البهايم.. ووراكم على طول..

- أجيب حاجة نحفر بيها..

استمر الوضع هكذا حتى إنه لم يصل قرب البئر إلا عدد قليل غير متجانس

معوض هناك يقبع بجوار بئره، بعدما انتهى وقت ذروة عمله وغادرت النساء المنطقة، أكثر وقت تفضله السيدات للذهاب إلى المطلب أثناء صلاة الجمعة.

شاهد معوض القادمين، رغم أن عددهم لم يكن يتجاوز العشرة، إلا أنه اضطرب وشعر بانقباض شديد.. وقف مكانه صامتا.. حاول بشتى الطرق أن يستجمع شتات شجاعته للتصدى لهذا الهجوم.. لم يجد بداخله إلا أثرا واهنا، لكن مهما كان ضعيفا، كان يجب عليه أن يتصدى لهم، لم يتمنى أبدًا أن يكون صاحب قوة وولد كثير غير هذه المرة، تمنى أن تكون إلى جواره عائلة وعزوة تسند ظهره، شاهد صورة باهتة لابنه شفيق، ليته كان هنا، كان اتخذ منه عصا يتوكأ عليها..

بدد الصمت الذي يغلف المكان صوت شاب من وسط الجمع:

- جايين نطلع الكنز يا عم معوض.. ونصيبك محفوظ..

خارت قواه.. أحس بعظامه رخوة هلامية.. صرخ من أعماقه صرخة مدوية اهتز لها كيان الواقفين:

- تخاريف..

لملم أحدهم أطراف شجاعة الجمع، وقال بتردد:

- لأه.. دي حقيقة يا معوض..

- كنز أيه؟.. طول عمركم بتجروا ورا الوهم..

- تحت أرض «المطلب» وها نطلعه..

هوى معوض فوق أرضه يتشبث بها.. غرس قدميه.. نشب أصابع يديه.. تمنى لو أنه يحيط بها كلها.. نظر إليهم، وخرج صوته مشروخا من أثر صراخه:

- بطلوا تخاريف.. لو فيه كنز كان اللي قبلنا طلعوه..

- كل شيء بأوان.. رزقنا يا سيدى..

اقترب الجمع تدريجيًّا، وهم أحدهم بخلع ملابسه استعدادا للعمل، حاول معوض الوقوف ولكنه سقط على الأرض، زحف على مؤخرته مرتدا نحو البئر يدفع بيده الهواء صارخا:

- ابعدوا من هنا.. ابعدوا..

- ها نطلع الكنز.. لك النصيب الأكبر.. أدخل الكوخ..

- ما فيش كنز.. الأرض دي كنزها في بركتها.. كنزها في بركتها..

كان يصرخ ويرغى ويزبد ويكبش بيده من تراب الأرض ويقذف به في الهواء وقد انتابته حالة هستيرية، فوقف الجمع وقد أصابه الوجوم..

ما الذي يفعله معوض؟ من المفترض أن يساعدهم، فسوف يحصل وبدون أي مجهود على نصيب وافر وإن لم يجدوا للكنز أثرا لن يضار، وسيبقى الوضع كما هو..

لكن أن يحدث ويتحول معوض إلى إنسان آخر، شيطان مريد، كما قال عنه البعض فيما بعد، تصدر عنه هذه الأفعال، هذا ما جعلهم يقفوا صامتين مدة بسيطة، حتى تقدم أحدهم محتميا بالعدد وتوجه ناحية البئر، ما أن يقترب حتى هجم عليه معوض في قفزة واحدة كقرد شرس، يقبض عليه بقبضتيه وأسنانه وأحاطه بساقيه أيضًا، صارخا في وحشية واستماتة حتى إن بعض كلماته تاهت..

كان حقًّا ما يراه الجمع أمرًا غريبا.. فإن جسد معوض وسنه لا يتناسبان مع ما يصدر عنه ويصرخ به:

- ابعدوا.. ابعدوا عن أرضي يا ولاد الكلب..

خلص الرجل نفسه بصعوبة من بين أنياب ومخالب معوض وفر هاربا والدماء تسيل من وجهه من أثر أظافر معوض..

أثارت هيئته الجمع الذي تراجع في صمت متوجسا خيفة، فقد فاقت استماتة معوض وحده رغبتهم جميعًا.. يضاف إلى ذلك عدم تأكدهم من وجود الكنز كما قررت الشائعات..

استحال الأمر إلى عداء ظاهر، تملكهم الفزع حتى إن أحدهم رفع عصا غليظة كان يتوكأ عليها ليحتمي بها من معوض المشتعل غضبا أطاح بها في الهواء عدة مرات فحسبه آخر يريد أن يضرب بها معوض فوقف ليحول بينهما، وجرى ثالث.. توترت الأجواء.. انطلقت عبارة كانت فيما يبدو طوق النجاة:

- معوض إتجنن يا رجاله.. أجرى منك له..

لـم يكد القائـل ينتهي من جملتـه، حتى هرولـوا جميعًا فارين، ممـا أعطى الفرصة لمعوض بأن يجري خلفهم ويحمل من حصى الأرض ويقذفهم به، يتعالى صياحهم يحذرون به كل من يقابلهم:

- معوض إتجنن.. وبيحدف بالطوب..

أطلقوا ذلك يبررون به سـبب جريهـم هكذا في طرقات القرية، حتى اسـتقروا في بيوتهم يلهثون ويسـردون التفاصيـل لزوجاتهم وهم يضحكون، لكن جملة انطلقت من إحدى نساء المجموعة:

- طـول عمرنا نعـرف إن معوض لا بيهش ولا بينش ،أكيد إنتوا السـبب.

كانـت هذه الجملة كافيـة لإيضاح الأمر، معوض لم يفقد عقله وإنما فقد صوابه مدافعا عن بئره..

بعد مرور يومين شـعر كل فرد من هذه المجموعة أنه أخطأ في حق معوض:

- راجل قاعد في أرضه نتعدى عليه ليه؟

إن سـمحت الظروف لذهبـوا إليه واعتذروا بشـدة ووعدوه ألا يفعلوا ذلك أبدًا.. لكن ذلك لم يحدث بسـبب الجبن الذي يتمكن منهـم وضعـف نفوسـهم، حتـى إن المصـاب طلـب أن يُحاسـب معوض على تعديه بالضرب عليه.. سخر منه الحضور:

- اللي يقرب من النار تلسعه..

- يا أخي خد بالك.. وحرص على نفسك..

كثرت أقوالهم اللاذعة والتي أظهرت أن عدم تقدمهم من البئر، بل وهروبهم أمام معوض كان عين العقل، بل وصفه أحدهم بأنه كان عمل شجاع.

في الأيام التالية زاد الإقبال على البئر، فقد ترك رجال القرية لنسائهم حرية الذهاب إليها بل وطلب البعض ذلك صراحة، للتأكيد على استمرار ولائهم إلى معوض وبركة بئره..

مرت الأيام وانتعش معوض ماديا، لكن قلقه على بئره كان دائم، أراد أن يقضى على ما ترسب في النفوس من أحلام مرتبطة بالبئر فأطلق جزء من سره إلى سيد الحلاق وهو يحيط رقبته بقطعة قماش نالها حظ وافر من شظايا سجائر زبائنه، فكانت كما المنخل، تربع سيد وجلس معوض أمامه وبدأ المقص يصدر صوته في رتابة:

- سيبهم يحفروا يا معوض.. أنت الكسبان..

- مرة فكرت أحفر البير يا سيد.. ظهر العجل وشالنى على قرونه ورمانى على بعد قصبتين تلاته.. ولما فقت لقيت ديك في حجم الخروف وعينه كلها شرار..

ارتبك سيد لحظة وضرب بمقصه عدة ضربات في الهواء:

- سمعنا الكلام دا زمان.. وقلت إشاعات..

- لأه دي حقيقة.. أيه اللي منعني.. مش كنت أنا وابني أولى بالكنز دا من سنين، بدل الفقر اللي إحنا فيه دا..؟!

تنهد سيد وهو يردد..

- عندك حق يا أبو شفيق.. عندك حق..

قبل أن ينتهي هذا اليوم كانت القرية كلها قد علمت بما قاله معوض إلى سيد الحلاق ولم يستطع أحد أن يكذب ذلك، فكان تفسيرا تقبلوه جميعًا ليخفوا به ضعفهم وعدم قدرتهم على التجمع حول رأى واحد..

سنوات ويشتعل الفتيل مرة أخرى لأحد الأسباب ثم تهدأ نيرانه، وهذا دائمًا كان حال بلدنا.

في كل مرة كان شفيق يحاول استطلاع الأمر من والده، ورغم يقينه بأن والده يخفي عنه أمرًا، إلا أنه كان يُظهر اقتناعه بتلك المعلومات القليلة التي يحصل عليها من والده، والتي لم تكن تتعدى أبدًا ما يعرفه العامة من أهل القرية..

لكن ما كان يحير شفيق حقًا هو لماذا يكتنز والده المال؟

الجميع يعلم جيدا أن دخل معوض أعلى من مصروفاته.. فأين الفارق إذن وأين يخفيه؟

بحث شفيق داخل المنزل أكثر من مرة ولم يعثر على شيء، فكر في أكثر الأماكن التي تصلح لوالده كمخبأ، تذكر الكوخ..

ولكنه أيضًا لم يعثر على شيء، أين يخبئ المال إذن؟ هل في مكان خارج البلدة؟!

عموما أجل شفيق بحثه حتى يأتي اليوم المناسب..

كان يستشعر، وهو يتجول على شواطئ الإسكندرية يعرض سلعه القليلة، ضرورة أن يعطيه والده كل ما يملك حتى يكفيه شر التسول المقنع هذا..

يبذل قصارى جهده في مقابل جنيهات قليلة لا ترضى رغباته أبدًا فقد كان يراوده حلم الثراء السريع، الذي أصبح سمة سائدة في مجتمعنا اليوم دونما أدنى عناء عن طريق ضربات الحظ، أو البحث خلف الشائعات مثل تلك المنطلقة حول البئر والتي ما إن كانت تصله أخبارها حتى يردد في أعماقه بأنه أول من سيبحث عن هذا الكنز وإن كلفه ذلك الكثير، لكنه يود فقط أن يتأكد.. يصل إلى مرحلة مظلمة من التفكير فيلفظ كل ذلك ويمارس تفاصيل حياته المملة بين شواطئ الإسكندرية ومقاهيها..

■ ■ ■

نفس الشعور تقريبًا كان ينتاب أحمد شاهين، خاصة حينما يقف ناظرا إلى «المطلب» من شرفته أثناء انطلاق مثل هذه الشائعات:

- إن كان هناك.. على بُعد خطوات.. كنز مدفون.. فلماذا لا أكون أنا صاحبه؟

يفكر في ذلك، ثم يهدأ قليلا.. مجرد شائعات لم تصل أبدًا إلى اليقين، رغم ذلك لم تمحى من ذاكرته، فبقى لها أثرا كنقش على صخر لا يمحى بسهوله..

شيء في طبيعة أحمد شاهين لا يدركه أحد، حتى هو نفسه، من ذلك أنه كان يركن إلى الطريق السهل المعبد، إن صادفته عقبات استعان بآخرين حتى يجتازها..

أهم الخطوات في حياة أحمد لم تكن من ترتيبه وصناعته، حتى التحاقه بقسم التاريخ بكلية الآداب كان من هذا المنطلق، فلم تكن لديه أية اهتمامات في هذا الاتجاه، لكنه أقام موازنة بين الأقسام المتاحة، وقتها، من حيث علومها ومستقبلها المهنى، فكان أخفهم وأقربهم إلى جزء بعيد في داخله هو قسم التاريخ..

مع مرور السنوات الثلاث الأولى من حياة أحمد الجامعية وهو قليل الزيارة لقريته، لا يهبطها إلا في المناسبات وبعض الإجازات، تلاشت رغبته في متابعة زائرات البئر مع اتصال خيوط الغرام مع «سلوى الجميل» ولسبب أخر لم يكن على رأس القائمة وهو أن ذروة عمل «المطلب» كانت وقت صلاة الجمعة وكان عليه أن يذهب للصلاة فلم يعد صغيرا وعدم وجوده في المسجد سوف يلفت الأنظار.

لكن بمجرد وصول شائعات البئر إلى أحمد شاهين، كانت تتملكه تلك الرغبة التي تتمكن من الكثيرين..

يقف في شرفته.. يشعر أن بينه وبين أسباب رخاءه خطوات.. لكنها ما زالت سراب، كل ما يريده هو الحقيقة، يريد المساعدة من أي فرد في كشف الغموض..

إنه لا يملك المال.. حتى ما جمعه والده في سنى الغربة أنفقه في هذا المنزل المقام على الأعمدة الخرسانية..

- بكرة الأولاد يكبروا.. ويبنوا عليه بدل الدور عشرة..

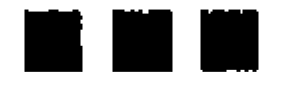
الأيام آخذة في التضاؤل، اليوم نفسه لم يعد يوحى بأنه أربعة وعشرين ساعة.. المنحنى ينحدر.. إن كان لديك اليوم قدرة على بناء منزل، فغدا لن تتاح لك فرصة لتبنى حجرة واحدة، هذا هو الحال في بلدنا هذه وفي أيامنا هذه..

- كيف يتفاءل الوالد ويرى بعين المستقبل الدور العاشر؟

يغرق أحمد في مثل هذه الأفكار، شاخصا ببصره نحو «المطلب» من شرفته لا يشاهد الوافدات، وإن كن يلاحظنه، تدخل أمه إلى غرفته فتراه على ذلك الوضع..

- لسه بتتفرج يا أحمد..؟!

لا يشعر أحمد بما يدور حوله.. إنه غارق تتقاذفه الأفكار حول مطلبه.. وفي الإسكندرية شفيق يلهث خلف مطلبه.. ومعوض يجلس شاردا إلى جوار مطلبه..



تتـرك سـلوى الجميـل قاعة المحاضـرات، باحثة عـن أحمد، تبدو سـعيدة منتشـية رقيقة إلى أبعد درجة، تعيـش لحظات الحب بـكل جوارحـها، كان إحجام أحمد عن التمادى معها في عاطفتها الجياشة، يشعل بداخلها نيران تجعلها تتألـم في سعادة، فهي تدرك أن للوعة الحب مذاق خاص يتخللها وتذوب فيه..

تشـاهده جالسـا هناك شـاردا، تحـت شـجرة تلقى عليـه بظلالها، تفاصيل وجهه الرائعة، شفتيه الدقيقتين الصغيريتن، جسده الممشوق، فهـو أطـول منها قليلا وإن كان نحيفا إلا أن حرارة شـبابه كانت طاغية تدعمها عظام صدره البارزة التي تختفى خلف غطاء كثيف من الشعر، تخيلتـه على استحياء فـي يوم ما، بعد الـزواج طبعا، يعتصر جسـدها الرقيـق، كانـت دائمًا مـا تحلم به تـاركا همومه وأحلامـه ليعيش معها الحب فقط .. تزم شفتيها وتسبل رموشها على ابتسامتها الخجلى..

استفاق من ذهابه الفكري على مس زهرة في يد سلوى تداعب بها أنفه..

تلقفهـا كمـا يتلقف الطفل الجائـع صدر أمه، بـث إليها همومه الدائمة، لـم يضف في حديثه جديدًا غير ما تعرفه عنه سلوى، سوى حديثه عن «المطلب» وما يدور حوله من شائعات..

تحدث إليها بشـكل يوحى بعدم تصديقـه لمثل هذه الروايات، محـاولا إخفاء نوازعه الداخلية أنصتت سـلوى إليه غير مندهشـة، وانتظرت حتى انتهي من حديثة..

لم يطلب منها التعليق اعتقادا منه بأن صمتها نابع من عدم التصديق لمثل هذه الخرافات التي يتعلق بأحبالها قليلي الحيلة..

لكنه فوجئ بها تتحدث في هدوء وثقة العالمين بمثل هذا الأمر مسبقا:

- فيه مناطق أثرية أو ما شابه بالقرب من البير؟

فكر أحمد سريعا، مارا على المنطقة بأكملها في ذاكرته:

- لأه.. ليه؟

- أقوال كتير من دي منتشرة في الأماكن الأثرية.. مشاهدة عجل أو ديك.. حتى أصبح وجودها مرتبط بوجود، مناطق أثرية..

يشرد أحمد لحظات ويعلق بصيغة الاستفهام:

- تقصدي مقابر تحتوى على مومياوات وكنوز ذهبيه وغيرها من تماثيل الأوشابتى؟

- دا قصدي فعلًا..

بدأ أحمد تدريجيًا يشعر بنوع من الاضطراب والتوتر الداخلي، وتساءل في نفسه:

- أيكون ذلك حقيقيا، أم هي أوهام أخرى؟ ولكن (يكمل بصوت مرتفع) لكن المنطقة خالية من أي أماكن أثرية..

مطت سلوى شفتيها وحاولت أن تخرج به من هذا الحديث، وددت لو يبثها حديث الحب بدلا منه:

- دا كان مجرد أقتراح.. المهم بقى..

قالتها على شبه استغاثة غلفتها بابتسامه محملة بعبير الحب، لكن أحمد لم يفهم ما ترمى إليه، فقد سيطرت عليه الفكرة تمامًا، حتى إنه تحدث كمن يكمل حديث بتر أوله:

- ممكن يكون فيه مقابر أثريه وما حدش وصل ليها لسه..

تضايقت سلوى من عودته لنفس الموضوع واحمر وجهها خجلا من تجاهله لمشاعرها، ثم أضافت بعد لحظة في هدوء:

- عليك بسؤال المتخصصين..

يذهب أحمد إلى الدكتور عبدالعليم منصور أستاذ التاريخ، ويطلب الانفراد به دقائق، يسرد له خلالها أمر البئر وما يثار حولها من شائعات، ثم يروى وجهة نظر سلوى الجميل.

أيد الدكتور عبدالعليم وجهة نظر سلوى هذه، لكنه علق ذلك على ضرورة وجود أماكن أثرية.

ظل أحمد يجهد فكره بحثا عن أي شيء يصلح لأن يكون أثريا بالمنطقة، فجأة قفزت إلى ذهنه القرية المجاورة لقريتهم، ميت دمسيس ومولد أبو جرج، هتف كمن عثر على طوق نجاته من غرق مؤكد:

- كنيسة مارى جرجس..

- القديس مارى جرجس.. البطل الرومانى..؟

- أيوه هو يا دكتور..

- كدا وضحت الرؤيا تقريبًا.. احتمال يكون بالجوار مقابر وسراديب من العصر الروماني.. معروف إن العصر دا كان تابع للفراعنة في كل الطقوس تقريبًا، خصوصا إن زى ما بتقول إنها تقع على النيل، ودى أماكن توطن القدماء..

لم يشعر أحمد بأن ما يحدث حقيقى، فها هي الخيوط تجتمع والغشاوة تنجلى تدريجيًّا، إنه يكاد يصل إلى هدفه:

- و نتأكد إزاي يا دكتور؟

- من المتوقع إنه يكون تحت البئر مقبرة أو فتحة سرداب..

- نحفرها..؟

- الأول عايز قطعة حجرية من أحجار البئر، نجرى عليها التجارب عشان نحدد عمرها الزمنى..

انتهت المقابلة وعاودت الشكوك أحمد من جديد، فعدم الحماس الذي كان يتحدث به الدكتور جعله لا يمسك بيده حقيقة ما مؤكدة..

عمومًا لم يستطع أحمد أن يجعل داخله هادئا، فظهرت آثار الانفعال على حركاته حتى إن سلوى تركته هذا اليوم وعادت إلى منزلها مبكرة تكتوى بنيران حبها..

كان يشـعر بأن هناك الكثير يجب عليه أن يفعله، مكانه الطبيعي الآن هناك في قريته..

كان فـي نهايـة الأسبوع، لم يكن ينوى السـفر إلـى قريته لمدة شـهر كامل، لم يكن في حاجة إلى المـال فقد حمل ما يكفيه لمثل هذه المدة، رغم ذلك سـافر.. استقر في حجرته.. بدأ يدرس الأمر بعناية..

كيـف يتاح لـه الحصول على هـذه القطعة الحجريـة دون إثارة الشكوك؟

كيف يذهب إلى هناك؟

هل يطلب من معوض نفسه أن يوفر له القطعة المطلوبة؟

إن فعل ذلك قد يثيره ضده على الدوام..

هل يرسل والدته؟ .. ولكن كيف يشرح لها الأمر؟

الوحيد الذي قد يسـاعده في ذلك هو شفيق معوض.. لكنه غير موجود، أيسـافر إلى الإسـكندرية لمقابلته؟ لابـد أن يقنعه بوجهة نظره ولابد أن تتوحد جهودهما..

هـي خطوة لابد منهـا.. لكن يجب أن تؤجل إلـى ما بعد التأكد مـن الأمر.. لابد مـن توخى الحـذر والحيطة ويظـل الأمر محاطا بسرية تامة، لئلا يفتضح أمره..

انتصف الليل، هدأت الرياح بالخارج قليلا، اشتدت البرودة، ألقى نظرة أخيرة على «المطلب» من شرفته، لم يشاهد شيئًا في الظلام لكنه أحس به بطبيعة الحال، استدار وارتدى المعطف الأخضر الداكن المصنوع من الصوف الخالص بأزراره السوداء المفلطحة، كان دائمًا يرفض ارتدائه (يشبه بالطو الخفر) لكنه اليوم فعل ذلك ليتقى به البرد ويتخفى فيه تحت ظلمات الليل..

أغلق باب حجرته وخرج على أطراف أصابعه، تسلمه الطريق بريح خفيفة حركت أطراف المعطف، رفع ياقته ودفن رأسه بين دفتيها راقب الطريق لحظات، استدار حول المنزل حتى واجه الطريق المؤدى إلى «المطلب» ..

الظلام شديد حتى إنه لا يرى أطراف أصابعه، السحب الكثيفة السوداء تحجب نجوم الليل، كان يتحسس الأرض بقدمه خطوة بعد خطوة، تمنى لو كان معه رفيق، وإن قاسمه في الكنز.

وصل إلى البئر بصعوبة، شاهد ماءها سوداء تلمع، وقف لحظات ليحدد موقعه ومطلبه، فضل أن يحصل على قطعة حجرية من قاع البئر فمن يدري، قد تكون الصخور المحيطة والقريبة من سطح الأرض حديثة العهد بالمكان..

مد قدمه خطوة بعد أخرى.. هبط تدريجيًا.. هوت صخرة من أسفله.. فقد توازنه.. سقط على ظهره واصطدمت مؤخرة

رأسه بالصخور، انزلق على الأسنة المدببة حتى استقر في قاع البئر فاقد الوعى..

■■■

لم ينم معوض بعمق كما اعتاد، كانت هذه الحالة تنتابه بشكل غير منتظم في الليالى التي تسبق يوم الجمعة، يوم العمل الأساسى بالنسبة لمعوض وبئره..

قبيل الفجر يصحو مستعدا ليوم شاق ملئ بالعمل، في العادة تكسو وجهه علامات الرضا والإقبال.. وهذا ما لم يستشعره اليوم..

ارتدى جلبابه وسحب حذائه من أسفل السرير، وخرج لا يثير أية أصوات، يخترق شوارع القرية التي تغط في نوم عميق، مر من الشارع الذي يتوسط القرية تمامًا.. سمع صوتا متسربا من منزل عطية الشحات:

- حطيت راسى في الطين.. وطلبت منه يتجوزها.. برضه رفض..

- نام يا عطية..

- الموت كان عندى أهون..

انتهى إلى سمع معوض بكاء عطية، فزم شفتيه وتنهد بصوت خافت:

- كل واحد غرقان في همومه..

اختلطت الأفكار في ذهنه ثقيلة، أراد أن يزيح بعضها ليرى البعض الأخر حتى يتعرف عن الهم الذي آرقه في ليله ولم يجعل النوم حليفا له..

حقيقة الأمر أنه لم يكن لدى معوض أية هموم ظاهرة غير تلك التي اعتاد عليها من مظاهر الحياة، حتى أنه ألفها تمامًا فأضحت من تفاصيل حياته اليومية، منها مثلا إصابة ظهره وتأثيرها على ممارسة حياته الطبيعية ومنها تعوده الدائم على التقشف والرضاء بفتات الحياة، وهناك تشتت شمل أسرته على قلة عددها.. لكن همه الحقيقى والدائم هو الحفاظ على بئره تلك كانت قضيته..

الحفاظ على حياته نفسها كان يأتي في مرتبة تالية بعد ذلك، يشعر بقوى خفية تشده دائمًا نحو بئره ليفنى حياته حفاظا عليها من كل سوء وما يُحاك ضدها من مكائد.

هي دنياه.. يعيش راكعا، والابن هربان، والزوجة جافة كل ذلك هان عليه، وإن حدث أكثر سوف يتقبله شرط ألا يقترب أحدا من البئر، هي مرحلة عليا من اليقين تلك التي وصل إليها معوض..

الأكثر من ذلك، وهذا جزء من سر معوض تقريبًا، هو يقينه بوجود قوى خاصة بالبئر ولكنها ليست تلك القوى التي تستخدمها النساء تحت اسم «بركة المطلب»، إنما هي قوى

خاصه تحافظ عليه كمكان مقدس تخلف عن أحد العصور الماضية:

- المكان محمى.. وفيه كنوز حقيقية..

تلك هي الحقيقة التي يدركها ويخفيها معوض، ويشك فيها أهل قريته ولكن اكتمال يقينه بقوى البئر الخاصة، تم بإدراكه التام بأن الهلاك مصير كل من يقتحم هذا المكان أو يحاول فض خاتمه..

إنه لن يحتمل رؤية هذه اللحظة بأي حال..

سوف ينهار ويتلاشى إذا انقطعت أسباب صلته بهذا المكان..

هذا ما انتقل إليه بالإيحاء من والده على مر السنين، وكان يجب أن يتلقاه شفيق أيضًا بشكل تراكمى مع الأيام، ولكنه رحل.. هذه أمور لا تُنقل من خلال حديث في جلسة أو وصية توصى، طبقات تنمو مع نمو الجسد، وتتزايد مع تزايد العقل، حتى تحتل القلب والعقل معًا.

ذلك ما كان يدركه معوض وإن كان لا يستطيع أن يصيغه في عبارات واضحة مفهومة حتى لنفسه..

طافت هذه الأفكار برأسه وهو في طريقه نحو البئر قبيل الفجر.

يزم شفتيه ويعقد يديه خلف ظهره ويتخذ الجهة اليمنى قاطعا الطريق الجنوبى، ثم يتسلل من الممشى الضيق بين منزلين متجاورين، حتى يترك القرية بأكملها خلفه ويستقبل جهة البئر.

ينحرف يسارا، فتح باب الكوخ، بين طبقات الليل الكثيفة المتراكمة بداخله بدأ يمارس جزء من عمله الأسبوعى، يجلس وسط الكوخ إلى جوار الوسادة المحشوة بالقش، يرفعها، أسفل منتصفها تمامًا أزاح التراب بيده مرة بعد مرة، حتى ظهرت أطراف معدنية..

يستمر عمله دقائق بمهارة المجرب حتى ينكشف سطح علبة من الصفيح من تلك المتخلفة عن السمن النباتى زنة أربعة عشرة كيلوجراما، جذب طرفها حتى رفعه، تحسس ما بداخلها فاطمئن.. أخرج من جيب سرواله مبلغا من المال كان قد حزمه وربطه بعناية ثم قذفه إلى جوف الصفيحة وهو يتمتم..

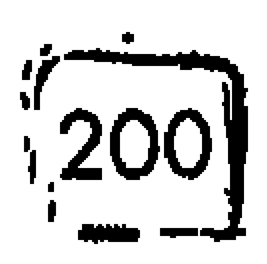
- كدا يبقوا خمستاشر ألف بالتمام والكمال..

تخوف أن يصل صوته لأحد فأطبق شفتيه وأنصت ليتأكد.. يعلم أن بثره قد يأتي إليها الزوار في أي وقت.. لم يلاحظ شيئًا غريبا.. الصمت كائن أسطورى يطبق على المكان.

أعاد غطاء العلبة وواراها التراب.. بسط الوسادة وجلس متربعا عليها ينتظر بزوغ الفجر.

لم يذكر عن صفيحته الموجودة أسفله شيئًا لزوجته أو لابنه شفيق رغم معرفته بأنه بحث خلفه مرارا ..

جمع هذا المال لتفادى غدرات الزمن، كثيرًا ما كان يقنع نفسه بذلك، ثم بدأ ماله يتراكم فكان يتحسسه بسعادة منقطعة النظير..



أرهف سمعه، مرة أخرى، فقد هُيئ له أنه يسمع أنين وتأوه، لكن صمت الليل الشديد عاد مرة أخرى. كان قلقاً من أن يكون هناك من يراقبه، يخشى أن يأتي رواد الليل للممارسة المحرمة إلى جوار البئر تحت جنح الظلام، حدث ذلك فعلًا من قبل وإن لم يصرح به لأحد، فقد شاهد رواد أغراب عن قريتنا يأتون ويستحلون المنطقة إلى جوار البئر ويفعلون فيها ما يشاءون وخاصة بالليل.

معوض لم يكن يتعرض لهؤلاء أبدًا، لعدة أسباب أولها هو خوفه من بطشهم..

- مش كتير على اللي يعمل الحرام.. إنه يقتل..

وسبب آخر هو عدم إثارة أية شوشرة حول وبئره، إنه هكذا مستكين والحياة تسير وهؤلاء سيقضون أوطارهم ويرحلون بدون علم أحد..

لكن صمت معوض جعل رواد الليل الأغراب يكررون ذلك، بل إن الأمر والأدهى فعلًا هو معرفة معوض بعض نساء الليل بائعات الجنس بمتعة أو بمال، فأحيانًا كن من قريته. لكنه استكمالا لوجهة نظره كان يغض الطرف، كثيرًا ما كان يترك المكان ويرحل.. عموما أنصت باهتمام فلم يجد شيء غير عادى..

دقائق ويبدأ في ممارسة عمله حيث يحمل دلوين ممتلئين بماء النهر ويسير بهما صاعدا هابطا انحدار الجسر، ويصبهما في البئر..

لقد كان من ضمن بركات البئر، أن مائها كان يزيد تلقائيا صباح كل يوم جمعه، لذا كان هذا يوم عملها الأساسي..

منذ سنوات طويلة كان يتم رى الأراضي المحيطة بالبئر وفقا لظروف بداية توافر المياه يوم الخميس من كل أسبوع ، ومن جراء ذلك تنشع الماء حتى تترسب في أعماق البئر..

انتشر الخبر بأن الماء المبروك لا يظهر إلا في يوم الجمعة، لا سيما وأن الماء خلال مروره عبر طبقات الأرض كان يصل نقيا صافيا، فازداد التبرك به، والشرب منه أحيانًا.

مع مرور السنوات والمياه آخذة في النقصان، حيث دخول زراعات لا تحتاج إلى رى الغمر، وأصبحت الأرض لا تجد الكمية الكافية لنفسها وبالتالى لم تعد تترك ما يمر عبرها، كل ذلك جعل الماء لا يصل إلى قاع البئر، فاستعان معوض بدلويّ الماء من النهر دون علم أحد حفاظا على بركة من بركات البئر، وحتى تجد الزائرات ما يكفيهن حال الاستحمام الكامل إن أردن ذلك..

خرج معوض يحمل الدلوين معلقين في طرفى قطعة خشبية على كتفيه وجذب باب كوخه خلفه واستدار..

سمع أنينا لوهلة.. شك بأنه صرير الباب، ولكن الصوت تزايد صادرا عن البئر، اضطرب داخله، أرهف السمع أكثر حتى شعر وكأن أذنيه قد استطالت ملليمترات.. تأكد فعلًا من أن هناك أحدا بالبئر..

تسارعت أفكاره تلهث خلف بعضها البعض، شاهد فيها العجل الضخم والديك الأبيض في حجم الخروف.. شاهد أيضًا نساء الليل تتأوهن حال اعتصارهن..

ترك الدلوين واقترب خطوتين.. كان الأنين يتزايد.. أشرف على البئر فإذا به يشاهد شبحا في قاع البئر يحاول الوقوف على قدميه ولكنه كان يجد صعوبة في ذلك.. تحدث معوض بهدوء من يتحسس في الظلام:

- مين؟

ارتعد أحمد شاهين وهو يتحسس مؤخرة رأسه، تخللت أصابعه خصلات شعره، فرك قطرات دم متجمدة على الجرح.. تأوه ولم يجب معوض الذي أعاد السؤال بصوته المبحوح:

- مين..؟

ساد الصمت لحظات حتى استجمع جزء من نفسه المشتتة:

- أنا يا عم معوض.. أحمد.. السيد.. شاهين..

- وبتعمل أيه عندك يا أحمد؟

يخرج أحمد من البئر زاحفا يتسلق أحجاره.. شعر بثقل المعطف بعد أن تشرب الماء من قاع البئر يكاد يخلع كتفيه فندم على ارتداءه..

يرتمى أمام معوض، كان يفكر في إجابة ولكن ألمه من أثر سقوطه على الصخور وفقده الوعى جعله لا يستطيع أن يمسك بأطراف أفكاره.. كان مشتتا.. هشا.. يتنفس بصعوبة..

جلس الرجل إلى جواره يتأمله في صمت، يحاول أن يحرز أسباب تواجده في قاع البئر.. أخرجه أحمد من حيرته حينما بدأ يتحدث بصعوبة:

- كنت واقف في الشباك.. ارتاح من المذاكرة.. سمعت كإن واحدة ست بتصرخ.. وحد بيجرى وراها، خرجت، ولما وصلت وقعت في «المطلب» وهما اختفوا..

لم يصدق معوض ذلك.. لم تعد مثل هذه الشجاعة موجودة لدى الغالبية في أيامنا هذه، الجميع يغلق بابه خلفه ولا يولى اهتمام لما يحدث بالخارج، ولم يكن السيد شاهين ذلك الرجل صاحب الهمة والمروءة التي قد يرثها عنه ابنه البكر..

لم يجد ما يكذبه به.. صمت.. شعر أحمد بأن عليه مغادرة المكان فاعتدل واقفا، تذكر القطعة الحجرية التي أتى من أجلها، نظر نحو قاع البئر بأسى واستدار يجر ساقيه متوجها إلى منزله، وقف معوض يتابعه حتى ابتلعته أذيال الليل..

حاول معوض جاهدا أن يفسر ما حدث.. لم يجد سببا مقنعا..

كان شكه في الجميع دائم، وها هو أحمد يؤكد ذلك اليوم.. شكوكه في محلها إذن.. يجب ألا يأمن لأي فرد مهما كان.. حتى

هـذا الغـر يطمع فـي البئر، مـن المؤكد أنه ينسـاق خلـف الأقوال المنتشـرة، أو يكون ترتيب من والده السـيد شـاهين متأثرا بالعداء القديم الذي يحمله في داخله.

هبـط معوض إلى القاع يتحسـس المكان، لـم يجد تغيير.. فلا توجد أي آثار للحفر..

ينشـغل معـوض بتلـك القصـة التـي سـردها أحمد شـاهين.. الحقيقة أنه لـم يُصب عندما اختار هذه القصة الزائفة معتقدا أنه أمام رجل جاهل.. إن من تأتي بنفسها إلى هذا المكان وفي هذه الساعة لا يمكـن أن تصـرخ مطلقا، ومن يُسـرع بدافع من الشـهامة لإنقاذ أحد لن يجد الوقـت الكافي ليتدثر بثياب ثقيلة مثل هذا المعطف، وإن وجد لن يجمع أزراره هكذا في عناية المتأني.

اسـتيقن معوض أخيرا أن أحمد ابن السـيد شـاهين يخفي أمرًا مهمـا ويتعلـق بالمطلب على وجـه الدقة، ولابـد أن يبذل معوض قصارى جهده لمعرفة أبعاد المكيدة الجديدة التي تحاك ضد بئره.

■ ■ ■

ترتـدي سـلوى الجميل فـي هذا اليوم فسـتان «برنسـيس» من الحرير الأزرق الخفيف، كثيرًا ما طلب منها أحمد أن ترتديه بعدما شـاهده عليهـا للمرة الأولـى، ولكنها كانت تُحـرج ويتورد خداها كلمـا لبسـته، فتخلعه مـرة أخرى حيث إنـه يبرز تفاصيل جسـدها

بوضوح، بداية من صدرها ثم شد خصريها وإبراز ثنايا بطنها على قلتها، ثم....

حصلت عليه كهدية وما جربته إلا يومًا واحدًا، وقررت ألا تعاود مثل هذه التجربة رغم إلحاح أحمد عليها..

ترتديه اليوم من نفسها، زادت عليه ذلك المسحوق الذي جعلت منه غلالة رقيقة على وجنتيها باللون الأحمر الوردى وفوق جفنيها بالأزرق الخفيف جدًّا، بشكل لا يلاحظه غير المتأمل، أحاطت رأسها بإيشارب ذو لون أحمر، فأصبحت رائعة الحسن أكثر مما كانت عليه..

الحقيقة أن سلوى لم تكن في حاجة أبدًا لمثل هذا التأنق، فهي تتميز بجاذبية خاصة، فقد كانت، ومازالت، تجذبك إليها بطريقتها في الحوار، حركات يديها مع حديثها، ضم شفتيها عند نهاية الكلمات، نظراتها وتسبيلة عينيها السوداوين، تعقص أنفها قليلا لأعلى تعبيرا عن بحثها عن جملة ما أو كلمة ما، تهدل شفتها السفلى وهي تداعبها بسبابتها حال استغراقها في التفكير.. باختصار كانت كل معالم سلوى الجميل تشارك في الحديث، لا تدعك تغض الطرف عنها لحظة.. على أنها لم تكن صاحبة ذلك الجمال الصارخ الذي يجذب من النظرة الأولى حتى وإن كان على جسد خاو، فكان يجب أولا أن تراها ثم تحادثها لتحيطك بحلو الحديث ورجاحة العقل، ثم.. ثم لا تستطيع أن تبتعد عنها،

تتواجـد معها بأي صفـة كانت.. زمالة، صداقـة عاطفة.. المهم أن تكون قريبا منها ..

أحيانًا وفي لحظات الصدق كان أحمد شـاهين يراها في مرتبة سـامية أفضل منـه بكثير، لم تكن تشـغلها أبـدًا تلك الأفـكار التي تقض مضجعه باسـتمرار، لذا فإنه نادرا مـا كان يحدثها عنها، لكن هـذه الأفكار في المقابل لم تكن تترك لـه فرصة حتى يبادلها نفس درجات الحب، فكان يقنع نفسـه باستمرار بأنه واقعي وهي تعيش في عالم الأحلام..

رغم إدراك سلوى بأن في هذا التحليل شيء من عدم الصدق إلا أنها كانت تتقبله راضية، مقتنعة بأن هذا أمر مؤقت مرتبط بتحسـن أحـوال أحمـد بالإضافة إلى إنها تمتلك ثقـة كاملة في قدرتها على تغيير أحمد شـاهين وجعله يعيش معها كما تريد من خلال تهيئتها للأجواء العاطفية المناسبة وإن قلت إمكانياتها ذات يوم..

جلسـت في مكانها المعتاد تنتظر أحمد، سحبت الدبوس الذي يثبت الإيشـارب عند الرقبة وتركته يتدلى فوق كتفيها كاشفة بذلك عن رقبتها وجزء يسير من أعلى صدرها، الحقيقة أنها فعلت ذلك، وإن كان على استحياء، بدافع من حب عميق أذاب خلاياها..

يصل أحمد، شـاحب اللون، يجلس ولـم يشاهد شيئًا مما أعدته لـه سـلوى كان يتثـاءب وقد حاول ألا يدع سـلوى تنظـر إلى عينيه

مباشرة، لكنه فشل في ذلك، خاصة عندما ذكر لها أسبابا واهية.. فسجبت يده ورفعت سبابتها وأدرات بها وجهه ناحيتها..

انهار صمته أمام نظراتها، أخبرها بالحقيقة كاملة، وانتهى بذكر معوض الذي ارتاب في أمره وهو يتابعه بنظراته..

حاولت سلوى أن تثنيه عن الخوض في هذا الطريق لئلا يصيبه الأذى فها هي بوادره، ولن يتركه صاحب البئر الذي سوف يزيد من حراسته وقد تكون العاقبة وخيمة..

لم ينصت أحمد إلى كثير من حديثها، فقد سيطرت فكرة الوصول إلى مبتغاة على جوارحه.

لقد وقر بداخله يقين كامل بأن تحت أرض «المطلب» الكنز الذي يريد دون أن يجهد نفسه في الحصول على قطعة صخرية يتم تحليلها أو خلاف ذلك من خطوات للتأكد..

تجذبه سلوى إليها بشكل بذلت فيه جهد ملحوظ، إلا أنه كان فاترا معها نوعا ما، ولم يأتي ثناءه، على ملابسها وكل ما صنعته من أجله، كما كانت تتوقعه، فانتهى اللقاء..

ولكن لم ينته الأمل لدي سلوى في أن تعيش الحب كاملا..

ولم ينته الأمل لدى أحمد في الوصول إلى تحقيق هدفه في يوم ما..

عـاد إلـى حجرته وأمسـك بورقة وقلـم وبدأ في كتابـة تفاصيل قضيتـه.. يضـع الاحتمـالات.. الخطـوات.. النتائـج.. الحلـول المتاحة..

يتناقش مع نفســه بصوت مرتفع.. يرسم مثلث كتب فوق ضلع القاعدة اســم معوض صاحب البئر وعلى الضلع الأيمن كتب اسم ابنه شـفيق وأخيرا كتب إلى جوار الضلع الأيسـر اسمه هو «أحمد شاهين»..

ظـل ينظـر إلى الورقة دقائـق، يقلب الأمر علـى أكثر من وجه، لابـد أن ثمة علاقـة وثيقة تربط الثلاثـة، رفع نظره إلـى نقطة التقاء ضلعه مع ضلع شفيق وضع سن القلم عندها وهو يحدث نفسه:

- لازم نتقابل ونفكر سوا.. بأي شكل.. شفيق هو طوق النجاة..

سـريعا مـا تحدث أمـور غير متوقعة فـي حياة الفـرد تغير حياته وتحول مجراها، هذا ما شعر به أحمد شاهين في الأيام التالية..

أصبح لا يفكر إلا في «المطلب» .. مناقشـته لأي أمر تكون من خلاله وأحلامه المسـتقبلية مبنيـة عليه، لقد تملـك المطلب كيانه بشـكل لم يكـن يتوقع حدوثه من قبل، لاذ الهـارب من قتامة اليوم إلى أمل «المطلب».

شعر أن خلاصه يكمن هناك أسفل صخور هذه البئر التي يسيطر عليها ذلك الأحدب..

مجرد ساعتين من العمل في قاع البئر، يصل بعدها إلى هدفه كما تؤكد له ظنونه.. نعم.. نعم.. من المؤكد أن هناك كنزا.. لا توجد شائعة أبدًا دون أساس، ووجود كنيسة مارى جرجس من العصر الرومانى بالقرب من قريتنا يؤكد ذلك بلا شك..

فمن الطبيعى أن تقام حول هذه الكنيسة الأثرية، حياة كاملة من منازل ومقابر ومعابد.. نعيم وافر تحت أرض «المطلب» ..

في حديث مع سلوى سألته بشئ من التبرم:

– وأى نعيم في الوصول إلى مقبرة أثرية.. دي ملكية عامة وهاتبقى ملك الدولة.

بُهت أحمد شاهين.. لقد لفتت سلوى انتباهه إلى جانب لم يفكر فيه قط، عماه شغفه وإقباله على ثراء سريع غير مجهد، عن رؤية الحقيقة كاملة..

زاد همه واسود وجهه، لم يستطع كبح جماح انفعاله، ترك سلوى وعاد إلى حجرته، نظر إلى أوراقه مشدوها.. رسم علامة خطأ على المثلث وأسفله رسم مربع.. أربعة أضلاع.. الضلع الرابع أضاف إلى جواره كلمة «ملكية عامة».. زفر بشدة.. ماذا تعنى الملكية العامة هذه؟

نظام لا يطبق إلا على فقراء هذا البلد.. الغلابة.. أمام مطالب الغلابة تظهر المصطلحات التي تزيد في إذلالهم، لا تترك لديهم فرصة أبدًا في طلب أدنى حقوقهم، بل ويُطلب منهم العمل حتى

النهاية، طوال الوقت يكدحون ثم يحشـرون في وسـائل غير آدمية ويأكلون الفتات، ثم يقال لهم من أجل «المصلحة العامة»..!!

الحقيقة الخالصة هي أنهـا «المصلحة الخاصة».. أنهار تصب فـي جيوب وخزائن فئة بعينها، عدد بسـيط يعيش في بذخ مفرط.. الآلاف يُداسون بالأقدام حتى تسعد هذه الفئة..

يكفى أنهم حين يمرون في الشوارع تتوقف الحياة، وليمت من مـن يمت من هؤلاء المحشورين في وسائل مواصلات تفقدهم ما تبقى لهم من جهد..

تُبنـى من أجلهـم القصور الفارهـة والآلاف تـمـوت في زحام الطـوابـير قبل أن تصل، وهي تنتظر شقة حجرة وصالة..

آلاف الأفدنـة تعطـى للخاصة مجانـا، ولصالحهـم أيضًا تُـنزع القراريط من مستأجريها «الغلابة» وتعود إلى مالك دفع الكثير..

هـدف واحـد أمـام الخاصـة لابد مـن تحقيقـه باسـتمرار وهو استنزاف كل الطاقات البشرية وشغل أصحابها بكل ما هو سخيف حتى لا تطلب يومًا مطلبا خاصا قد يضايقهم ..

كل الجرائـم مباحـة لهم، وعندمـا يحلم الفقيـر.. عندما تتمنى الغلابة مطلبًا ولا يسـتطيعون وأده فـي المهد، تظهر المصطلحات الرنانة المصحوبة بابتسامات صفراء:

– المصلحة العامة يا جماعة.

– كل دا عشانكم وعشان أولادكم.

- فيه دول تانيه الناس بيموتوا فيها من الجوع.. احمدوا ربنا وبلاش طمع.

تظهر أمام أحمد شاهين تلك الصور المفزعة لآلاف الشباب الذين لا يجدون سوى فرص عمل تمحو أحلامهم وتقضى على شبابهم وتقتل إبداعهم وإن تمرد أحدهم نهشته أظافر الفقر.

طفت أمام ناظريه صورة أخرى لتلك السيارات الفارهة التي تضم بداخلها شباب وفاتنات يستبيحون الطرقات وقد حولوها إلى ملاهي يفعلون فيها ما يشاءون بشكل مستفز..

كل ذلك يحدث والغلابة يجب أن ينصتوا إلى مقولة «المصلحة العامة» ويعقبون في صمت دموى.. «أمين»..

هذه صور قليلة من ذلك المستقبل الذي ينتظره أحمد شاهين..

عندما وصل أحمد إلى هذه الجزئية زفر حنقا.. ثم مط شفتيه استياءا وبعد دقيقتين تقريبًا ابتسم وكتب على الورقة أمامه العبارة التالية:

«لتحقيق المصلحة العامة، بمنطق الكبار، لا بد وأن تتحقق المصلحة الخاصة أولًا»..

■ ■ ■

عندما استيقظ أحمد شاهين في اليوم التالى لم يجد بداخله الراحة الكافية لتلك النتيجة التي وصل إليها بالأمس..

توجـه بكل همومه إلى الدكتور عبدالعليم منصور الذي كان قد نسـى الموضوع بأكمله، فأعاده عليه أحمد وسـأله فـي النهاية عن مكافأته في حال اتصاله بالمسئولين لمتابعة الأمر.

الدكتـور عبدالعليـم رجلا شـريفا، لـه رؤيته الخاصـة في تلك الأمـور التي ليسـت فـي نصابها، ولكنـه رغم ذلـك كان صموتا لا حيلـة لـه، وهذا مـا أهدر منـه أكثر من منصـب كان أحق بـه، لكن رجـال «التلت ورقـات» كما يطلق عليهـم، كانوا أسـرع إليها منه، فكان يستغفر الله في صمت..

ما إن سـمع الدكتور عبدالعليم مـن أحمد كلمة المكافأة، حتى غـرق في الضحك، كان مـن طبيعته أن يضحك فـي صمت أيضًا، فقلما تشـعر به يضحـك بوجهه الدقيـق ولحيته القصيـرة ونظارته الطبية السميكة وتذكر حادثة مشابهة..

موظـف أمن يشـرف على حراسـة مقبـرة لم تـدون محتوياتها، مرتبه الشهرى مائة وخمسون جنيها، عُرض عليه مبلغ مليونى جنيه مقابل قطعتين أثريتين من محتويات المقبرة.. جارى هذا الموظف اللصوص ونصب لهم شركا حتى أوقع بهم.. رفض المليونين..

كتبـت عنه وعـن أمانته الصحـف.. ظهر في وسـائل الإعلام.. قابلـه في احتفال مهيب السـيد الوزير مهنئا وأعطـاه أمام كاميرات التصوير شـهادة تقدير ومكافـأة مادية تعادل ثلاثة أشـهر من مرتبه نظير حرصه على المصلحة العامة..!!

تخيل موظف يرفض مليونى جنيه ويكافئ بأربع مائة وخمسون جنيها؟! في حين أن من أعطوه تلك المكافأة قبل أن يرصدوا محتويات المقابر رسميا، تمتد أيديهم لتنال ما خف حمله من هذه المقابر، وهناك جملة ثابتة:

«المقبرة تعرضت للسطو من لصوص المقابر في أحد الأزمان الغابرة»..

يشهق أحمد شاهين امتعاضا ويكوم قبضته ويقذف بها في الهواء..

الآن لفظ بعيدا كلمة السطو والسرقة، شعر بأنه يبحث عن أحد حقوقه وتساءل هل يدلهم عليها ليختاروا ما يشاءون؟! وتكون مكافأته بضعة جنيهات، وقد لا تكون، فهو ليس حارسا رسميا..

متى يكون خير هذه البلاد لأولادها جميعًا ..؟!

متى تكون هناك عدالة في التوزيع..؟!

متى يشبع من يمتص دماء الغلابة؟!

متى يعيش الغلابة؟!

بهذا تحدث أحمد إلى سلوى التي أجابته من بين جناحى حبها الفياض:

- إن تم تحقيق اللي بتقول عليه يا أحمد، ما تراكمت للناس الغلابة مطالب بتموت قبل ما توصل لها .

حقًّا ما تقول سلوى، الواقع اليوم يفرض علينا الهرب منه بحثا عن مطلب أصبح عاما .. مطلب كيانه الاطمئنان إلى المستقبل والشعور بالراحة..

الواقع أن تحقيقه ليس صعبا أبدًا.. لكن عندما يرغب من يمسك بزمام الأمور في ذلك تاركا للعدالة أرضا خصبة تنمو فيها.

■ ■ ■

يجلس شفيق على مقعد من جريد النخيل مبطن بوسادة رقيقة من الاسفنج في مقهى بمحطة الرمل بالإسكندرية، أمامه كوب من الشاى يرسل بخاره طبقات تعكس أشعة المصباح الأبيض، تناول خرطوم الشيشة وأخرج «المبسم» من غلافه ووضعه في مكانه، في حين أن عامل المقهى كان قد انتهى من وضع النار فوق الحجر..

- شد يا أستاذ.. احرق يا بيه..

ابتسم شفيق عند سماعه لهذه الكلمات «أستاذ.. بيه»؟؟ إنه لم يحصل على الابتدائية.. يبدو أن المعيار اليوم يتوقف على نوع الثياب..

على الشاطئ يرتدى أسوأ الثياب حتى ينال عطف المتعاملين معه، أما في نزهته الليلية، سيما في ليالى الشتاء يرتدى أفضل ثياب لديه ويتنقل بين المقاهى..

نادرا ما كان يعقد صفقات صغيرة تجعل عجلة الحياة تسير.. أجهزة التليفون المحمول والتي انتشرت بشراهة.. عدوى التقليد تجعل البيع والشراء مستمرا.

ذاع صيته في هذه التجارة (شفيق بتاع المحمول) وعُرف مكانه الدائم بعد هبوط الليل.. مقهى محطة الرمل..

يراوده زبون عن عدة تليفون، يسير بهما منحنى الفصال حول الثمن صاعدا هابطا حتى تمت الصفقة لصالح شفيق..

سحب نفسا طويل من الشيشة.. تصاعد الدخان كثيفا.. وهو يرتشف الشاى على دفعات قلت الحركة في المحطة.. ركن ظهره إلى مسند المقعد..

سنوات تمر والوضع كما هو.. عجلة الحياة تصدر أنينها الرتيب الذي يصم الآذان..

تذكر والديه.. لو أن لديهم تليفون بالمنزل لتحدث إليهم الأن، لكن والده رفض فكرة إدخال التليفون..

- يابا البلد كلها دخلت التليفون وبتتكلم..

- تقاليع فارغة.. وطريقة جديدة يمصوا بيها دم الغلابة..

ابتسم شفيق وهو يتذكر تعليق والده «دم الغلابة»..

تمنى شفيق لو شاهد والده الحياة بكل تفاصيلها خارج القرية، وقتها سيتمنى بلا شك أن يكون من الأثرياء.. أوه.. ليته يرى..

لـم تسـمح لـه علاقته بوالـده أن يكـون قريبـا منـه.. أن يصبحا صديقين.. الفجوة كبيرة جدًّا.. عاطفة شـفيق نحو والده باسـتمرار كان يشـوبها النقص ولـم تتعرض هـذه العلاقة في يوم ما للاختبار، تمنـى لو كان في القرية يوم هجـوم أهلها رغبة في حفر البئر، تمنى ذلك ليشـاهد أعماق ذاته، هل تجعله يدافع عن والده، أم أنه يقف مـع الآخريـن.. موقف واحـد يجعله يتعـرف على ذاته المشوشـة بوضوح، ولكن هذا لم يحدث..

في الصيف الماضى شـاهد بعض شـباب القرية فـي رحلة إلى شاطئ البيطاش بالعجمى وكانت جولته هناك..

ترك الشـاطئ، جلـس في حجرته الخاوية إلا من سـرير صغير، أشعل سيجارة يمتص معها سخطه على الجميع..

لـم يجد لديه رغبة نحو قريته.. لا يوجد رباط.. طفولته اتسمت بالجفـاء والانعـزال التـام.. لا صديـق.. راغبـى صداقته في سـنى المراهقـة كانت لهم أهداف واضحة حيـث الاقتراب من البئر عن طريقه..

عاد شفيق إلى دنيا الواقع على دقات بسيطة أمامه على المنضدة.. رفع نظره ليتعرف على صاحبها.. أوه.. تملكته الدهشة..

إنه أحمد شـاهين.. ابن عـم السيد شـاهين.. ما الذي أتى به إلى هنا؟!

طافت أمام عينيي شفيق أفكار قاتمة.. شاهد أحد والديه وقد أصابه مكروه وتجمعت القرية كلها كعادتها وتطوع أحدهم لنشر الخبر، يبحثون عن رقم تليفون لشفيق.. لا يجدون.. يتطوع أحمد شاهين بالسفر إلى الإسكندرية بحثا عنه..

نظر نحو أحمد يحصد تعبيرات وجهه، فألفاه مبتسما..

ليس الأمر كما يتصور إذن، إنه يبتسم، هل هرب أيضًا تاركا القرية؟

لا حاجة له للهرب.. إنه يسكن القاهرة حيث جامعته.. ثم أنه يستنزف والديه باستمرار.. حاول أن يحرز أسبابا أخرى.. لكنه قرر الانفلات من أفكاره المشوشة.. نجح بعد عناء.. وقف أمامه وقد زادت دهشته.. لم يجد ما يتفوه به.. أخرجه أحمد من هذه الحالة عندما مد يده مصافحا، مد شفيق يده بارتباك ملحوظ:

- أهلا.. يا أحمد.. تفضل.. يا أستاذ أحمد..

رغم تقاربهما في العمر، إلا أنهما لم تجمعهما أية علاقة من قبل وإن اختلفت أشكالها.. حتى السلام نفسه لم يتم تبادله بينهما، ذلك تعاليا من أحمد وحنقا من شفيق.. اليوم ماذا حدث؟

حاول شفيق أن يسأل.. لكن السؤال لم يخرج كما أراد:

- تشرب أيه يا أستاذ أحمد..

غمره أحمد بنظرات استطاع أن يُحملها نوعا من الألفة والحنين، تخللت جنبات شفيق.. شعر أنه أمام صديق..

كان أحمد قد درب نفسه مرارا وهو في طريقة على هذه النظرات التي إن صدق فيها حقًّا سوف تجعل النجاح حليفه بلا ريب، وبعد نجاح هذه الخطوة عليه أن ينتقل إلى الخطوة التالية حيث وجب عليه أن يستعير حكمة الشيوخ ووقار العلماء وثقة الخبراء ليصنع منهما قناعا يرتديه..

شعر شفيق بالتضاؤل لحظة، ثم يستعيد رباط جأشه.. إنه في أرضه بينما أحمد شاهين هو الوافد عليه.. صفق شفيق بشدة محاولا التخلص من توتره آتاه عامل المقهى، أشار ناحية أحمد الذي تحدث باقتضاب:

– أشرب شاى..

انصرف العامل.. مال أحمد نحو شفيق الذي اقترب بتلقائية وقد جذبته نظرات أحمد حتى إنه شعر بدبيبها يسرى في عظامه:

– اسمعني كويس يا شفيق..

أطال أحمد في حديثه عن حال البلد وطبقاتها، مستغلا ثقافته وجهل محدثه، صور له كيف يعيش الأثرياء في هذا البلد، وكيف يعيش الغلابة:

– حتى المحمول اللي بتشتغل فيه يا شفيق، مجرد وسيلة لشغل الشباب وتفريغ طاقاتهم وتسطيحهم.. دايما يشغلوهم بالجديد.. رنات.. صور مسابقات.. تصوير.. فيديو على التليفون وعرض مشاهد جنسية صريحة باختصار يا شفيق التدمير شامل..

- عندك حق والله يا أستاذ أحمد..

ابتسم أحمد في أعماقه، فقد استطاع أن ينفذ إلى شفيق ويحتويه وألهبه بحديثه عن الثراء:

- عايز فلوس يا شفيق؟

- ومين مش عايز يا أستاذ أحمد..!!

- كنز يا صديقى وبدون مجهود..

تساءل شفيق عن تفاصيل أكثر دقة، ولماذا وقع اختيار أحمد عليه هو؟

شرح أحمد مطلبه ذاكرا أدق التفاصيل موضحا كافة الاحتمالات والخطر الكامن سواء من ناحية أهالى القرية وعلى رأسهم والده معوض صاحب البئر وحارسه الأمين، أو من ناحية المسئولين وعلى رأسهم وزارة الثقافة، يأخذ شفيق هيئة المفكر المتزن، يضع ساقا فوق الأخرى بينما يسحب نفسا طويلا من الشيشة، يخرجه على دفعات ثم يقول:

- دا أنت مذاكر الموضوع كويس يا أستاذ أحمد..

- دا مستقبلنا يا شفيق..

- ها نقدر؟

- طبعا..

قالهـا أحمد وهو يحاول أن يخفي من أمامـه تلك الصورة التي تحمل علامات الفشل.. فاستشعر شفيق اضطرابه..

- ها نقدر لوحدنا؟

كان أحمـد يُقـدر تمامًـا أن اللجـوء إلـى المتخصصيـن، حيث المنهـج العلمي السـليم فـي التنقيـب، يضمن النجـاح، لكنه على الجانب الآخر كان يخشى تهميشه وعدم تحقيق حلمه.. واستطاع أن يقنع شفيق بذلك:

- لابد من السـرية التامة.. العمل هايكـون بالليل.. الحفر مش هاياخد أكثر من ثلاث سـاعات متواصلة في حال اسـتئجار خمسة عمال من رجال الحفر، ولازم يكونوا من قرية أخرى..

على الرغم من أن شفيق كان يعتقد في نفسه أنه صاحب شخصية مستقلة من الصعب التأثير عليها، إلا أنه اليوم وأمام اختبار حقيقي، استطاع أحمد شاهين أن يصهره ويعيد تشكيله مرة أخرى..

تزاحمت أمام شفيق عدة صور منها البئر والنساء حولها، والده، فتاة مقهى أم السيد وطبيب «كاتدرائية نوتردام» في الزقازيق، حاول أن ينفلت من بين هذه الصور، فهبط بين صورا أخرى لطبقة تملك كل وسـائل الرفاهية والمتعة، يشاهد نفسه فردا منها، فها هو أخيرا يشاهد السبيل إلى مطلبه..

بالطبع وافق شفيق..

قرأ الشابين الفاتحة وقد تشابكت أيديهم..

حملا متاعهما.. هبطا أرض القرية..

■■■

تمر أيام وأحمد شاهين وشفيق معوض لا يفترقان، مما أثار العديد من التساؤلات سيما من معوض الذي شعر باضطراب شديد، فحاول الاقتراب منهما، لكنهما آثرا الابتعاد عنه..

صار معوض يبحث في أعماقه عن خيوط سيطرة الوالد على ابنه، وجدها واهية، شفيق غريب عنه تمامًا.

لأول مرة يشعر بالفارق الشديد بينهما، سيما فارق السن، ذلك الجدار الصلب الذي يصعب اجتيازه..

يفكر في جاره السيد شاهين، يجد أن العلاقة لم تكن بينهما في يوم ما حميدة، حتى يتجاذب معه أطراف الحديث حول مخاوفه من ابنه أحمد وسطوته الناشئة على شفيق..

وضح بما لا يدع مجالا للشك أن هناك أمرًا يُحاك حول البئر استشعره بأحاسيسه وجوارحه، فجافى النوم مآقيه.. بعد عدة أيام شعرت نفوسة بالتغيير.. فسألت:

- جرى أيه يا راجل؟

بث إليها مخاوفه.. طلب منها في شبه توسل أن تتسلل إلى ولدها شفيق مظهرة حنان الأمومة كي تعرف مكنون ذاته:

- كبرت وخرفت يا معوض..

- إتأكدى بنفسك يا نفوسه..

- إن كان صحيح سيبهم يجربوا..

- مش هايقدروا..

- يعنى صحيح .. يبقى لازم تسيب الولاد يطلعوا من الأرض كنوزها يا معوض..

لم يجد ما يقوله، كان بداخله خوف مستقر وانهزام أسطوري.. اقترب من نفوسه، تدفعه قوى خفية، توسل إليها من جديد، حتى أن دموعه انحدرت على وجنتيه تشق طريقا وسط تجاعيد السنين المتربة..

أشفقت عليه نفوسه، خرجت، مسح دموعه بظهر يده، نفض أنفه في كم جلبابه، نما بداخله أمل جديد، تحدث إلى الفراغ بصمته الرهيب:

- أكيد مش ها يقدروا..

قالها بلهجة التأكيد مواجها ضعفه وانهزامه، كان يخشى بشدة ما سوف يحدث، وإن كان لا يدرك تفاصيله، إنه فقط يشم رائحة الخطر زاحفا نحو بئره..

انقباض دائم وجفاف ومرارة في حلقه.. عود مثل عود الحطب وعينان ذابلتان تظهر فيهما بوضوح عروق دموية..

تعود نفوسة عابثة، وجهها أسود من شدة الغضب، تصب غيظ السنين من معوض عليه:

- سيبهم في حالهم..

- ناقصهم أيه ولاد الأيام دي؟ لو شافوا كنا عايشين إزاي زمان؟

- إنت اللي ما تعرفش الناس بره عايشين إزاي النهارده..

يرتبك معوض، يهتز داخله بقوة.. يبحث عن كلمة يقولها لم يجد، لم يستطع تصديق كل ما يحدث حوله، تساءل في دهشة:

- إزاي..؟

اعتقدت نفوسة أنه يسألها عن كيفية المعيشة خارج البلد فأجابته:

- الولاد بيقولوا كلام كتير.. عربيات .. وقصور.. وإشى لبس وأكل بره الفلاحين يا معوض الدنيا غير الدنيا..

- ضحكوا عليكي يا نفوسة..

- بكره نشوف مين بيضحك على مين..

■ ■ ■

يهبط الظلام كثيف.. تخفت الحركة.. تنعدم إلا من شفيق متلحفا بالليل يسير في القرية، متجها ناحية منزل أحمد شاهين..

يقف بعيد عن الأضواء المنبعثة خافته من نوافذ المنازل.. يطلق صفيرا متقطعا بعدها أضاءت شرفة أحمد مرتين ثم ساد الظلام ..

لحظات ويظهر أحمد شاهين:

- العمال وصلوا..

- باقى على ميعادهم ربع ساعة..

- بينا نقابلهم قبل ما يسألوا حد..

يسير الشابان حتى طرف القرية الشمالي، حيث المحطة الرئيسية التي تمر عليها سيارات الأجرة..

يصل العمال الخمسة الذين اتفق معهم شفيق من قبل وهم يحملون الفئوس والمقاطف والأخشاب وباقى معدات الحفر، فقد كانوا متخصصين في أعمال الحفر.. ومقابل هذا العمل الليلى والذي يثير الشكوك بطبيعة الحال نالوا أجرا مضاعفا، حصلوا أيضًا على وعد بمكافأة ضخمة في حال تحقيق الهدف، كل ذلك مقابل السرية التامة..

وصلوا إلى البئر، أشعل شفيق مصباح غاز أضاء المكان، وبدأ العمل بهمة ونشاط حيث هبط إلى قاع البئر اثنين من العمال يضربون بالفئوس في قطع الحجارة المتراكمة، والثلاثة الآخرين يحملون المقاطف المملوءة على أكتافهم، يلقون أحمالهم إلى جوار البئر ثم يعودون ليحملوا غيرها.. وهكذا

بعد نصف ساعة تقريبًا من العمل الشاق الذي يتم في صمت شديد انتهت الحجارة ويتم الوصول إلى أرض البئر الطينية..

تكون إلى جوار البئر تل صغير من مخلفات الحفر، بدأت بعدها مرحلة أخرى حيث ثبت شفيق بمعاونة العمال عدد من القطع الخشبية إلى جانب البئر الأيمن وسد بينها بقطع أخرى وحزم من قش الذرة الجاف واستخدموا هذا الحاجز لوضع مخلفات الحفر خلفه، كلما زاد العمق زاد العناء..

يستمر العمل أكثر من ساعتين، أحمد يتابع متحفزًا، كلما زاد العمق زاد اضطرابه وتوتره، يتذكر «سلوى الجميل».. تمنى أن تكون معه لحظة العثور على الكنز..

كلها دقائق معدودة ويحصل على ما يريد، بعدها سيتحول إلى إنسان آخر، سوف يغمر سلوى بحب لم تتخيله من قبل.. سوف يعيشان الحب بلا قلق ولا خوف من تقلبات وغدر المستقبل..

يتذكر والدته والحلق التي باعته من أجله، فقال في نفسه:

- هاشترى لها حلق جديد أفضل منه.

شعور غريب ينتاب أحمد.. إنه يدنو من أعتاب تلك الفئة التي تعيش الحياة بكل ثرائها.. ينظر إلى العمال الذين يمارسون عملهم في صمت آملين في الحصول على مكافأة مجزية.. سوف يعطيهم بلا شك..

يقترب من شفيق الذي كان يتابع ويساعد أحيانًا، يربت على كتفه..حركهما الأمل، وأشعل بداخلهما نيران الفتوة حلم الثراء المنتظر تحت أقدامهما.. عملا بنشاط مع العمال..

يهبطوا أكثر إلى قاع البئر، يرتفع الساتر الترابى، وكلما ارتطمت فأس بقطعة صخرية، أشعلت نيران الأمل وألهبت حماس الجميع وزاد النشاط ويزداد الهرم الترابى ارتفاعا خلف السد..

■ ■ ■

لـم يسـتطع معوض الانتظـار أكثر من ذلك، كان ينصت بشـده يتسـمع أي أصـوات آتية مـن الخارج، كان حقًّـا ينتظر حدوث أمر عظيم.. صمته واسـتكانته أمام صراخ نفوسـه وإصرار ولده جعلاه يقبـع فـي ركـن الصالة مشـدوها، جثـة هامـدة تتنفس برتابـة. تمر السـاعات وغضبه يرتوى بدمعـه الحبيس، كيف صمـت أمامهم؟ عليه أن يدافع عن روحه التي تسلب منه أمام عينيه..

يسـتجمع شـتات شـجاعته، يقرر أن يلحـق بهمـا ليثنيهـما عن قصدهـما، سـيفعل ذلـك مهما كلفه الأمر.. سـيلحق بهما وينجوا ببئره سالمة ..

يخرج مسـرعا يتدحـرج راكعا بين طرقات القرية تاركا نفوسـة فريسـة نومها الثقيل، يمر أمام منزل عطية الشـحات، يسمعه وكأنه يتحدث من داخل حلم:

- لازم يتجوزها..

لكن زوجته تعلق بصوت واهن..

- نام يا عطية.. تبات نار تصبح رماد..

يسرع معوض بذهنه المشغول، يتذكر جزئيات حياته إلى جوار البئر، شاهد صخور البئر قطعة قطعة.. زائراته سيدة سيدة.. لا يدري لماذا قفزت إلى ذهنه جاموسة جمالات زوجة عبدالغني مصطفى ترى أما زالت تنكر اللبن؟

نفض رأسه بشده وسلط نظره عبر الطريق الذي استطال.. أسرع الخطى، وهنت شدته، أوشك من شدة تضارب أفكاره أن يسقط مغشيًّا عليه.. تماسك بأهداب الأمل المنسل من بين يديه..

يصل إلى البئر.. تل ضخم إلى جواره، زاد عمقه أضعاف، العمال ما زالوا يعملون في صمت، يصرخ فيهم ليصدهم عما يفعلون، يبدو أن لديهم تعليمات بعدم التحدث أو حتى الالتفات لأحد..

يقترب مسرعا من شفيق وأحمد، يصرخ فيهما وهو يعقف يديه أمامه:

- كل دا ليه..؟

يجيبه صمت عميق.. لم يكن هناك سوى هدف واحد.. الجميع هنا يتحركون بآلية.. تملكتهم قوى غريبة..

معوض يجري وسطهم جميعًا، عله يستعطف أحد، دون جدوى، ينهار باكيا:

- اخرجوا يا ولاد.. ارحموني وارحموا نفسكم.. دي أرض محمية..

توقع وصول معوض في أي لحظة جعلهم متأهبين لعدم إجابته حتى بعدما صرخ وهو يجري ويتعثر المرة بعد الأخرى، حتى إنه

انزلق، لكنه تشبث بالحاجز الخشبى الذي صنعه شفيق والعمال لحجز التراب خلفه، تشبث وهو يصرخ:

- عايزين فلوس؟.. أجيب لكم فلوس بس اخرجوا..

هرول نحو الكوخ، سقط على الأرض.. زحف.. دفع الوسادة المحشوة بالقش وألقاها جانبا، حفر الأرض بأطراف أصابعه الجافة.. ليستخرج الصفيحة التي تحتوى على المال.

ارتطمت فأس بصخرة كبيرة عدة مرات، هلل العامل، أسرع إليه الجميع، وترك أحمد وشفيق نفسيهما ينزلقان حتى قاع البئر تصدر عنهما أصوات سعادة متوترة.. بقى عامل واحد في الأعلى يفرغ محتوى مقطفه..

يستخرج معوض صفيحة المال.. سمع حركة غير عادية وأصوات، عاد ناحية البئر صارخًا:

- الفلوس أهيه، الكنز مش تحت الأرض، الكنز هنا فوق، اخرجوا..

تردد صوته في فضاء الليل الرهيب، لم يستيقظ أحد من أهل القرية، فقد كانوا في سبات عميق..

يقترب من حافة البئر بعصبية، يشاهد الحركة الشديدة في قاع البئر، صرخ بشدة، لا يلتفت أحد إليه.. يحاول الهبوط، لكن الطريق إلى القاع أصبح غير ممهد.. صار يتحرك بشكل سريع وكأن به مس فانزلقت قدمه بشدة، فتعلق بقطعة خشبية من أخشاب الحاجز

المقام، تسقط الصفيحة التي تحوى المال على رأس أحمد شاهين الذي ترنح جانبا وتبعثرت عليه الخمسة عشرة ألف..

يتقاتل العمال للحصول على المال وهم يصرخون.. يقف شفيق يتابع صامتًا، ووالده متعلقًا بأخشاب الحاجز التي لم تتحمل ضغط التراب عليها ولا ثقل معوض، أصدرت صوتًا، نظر شفيق نحو والده المعلق، انكسرت قطعة الخشب في يد معوض فسقط فوق شفيق. ينهار السد.

يسقط التل الترابى فوقهم.. يغيب قاع البئر، وفي جوفه الجميع، تراكم التراب بشكل كامل..

بقى عامل واحد في الأعلى يتابع ما يحدث في صمت الموتى..

ساد صمت عميق..

■ ■ ■

يختفى العامل الوحيد.. تشرق شمس يوم جديد.. يطوف زوج من الحمام أَلِفَ شُرب الماء من البئر.. يظل يحوم لحظات باحثًا عن «المطلب» .. لا يجده.. ينصرف متجهًا نحو النهر القريب.

تمت

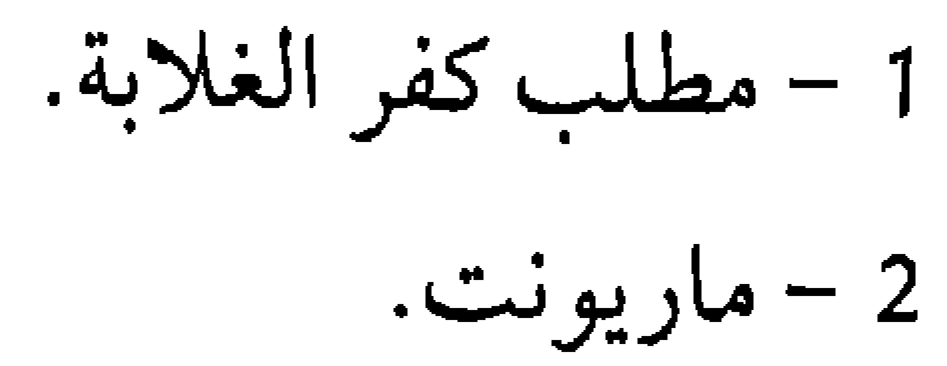
رضا سُليمان

2006





رضا سليمان



1 - مطلب كفر الغلابة.

2 - ماريونت.



طبع بدار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين ت: ٢٧٩٤٢٠٧٩



تحمل اللوحة الأولى " عمدة عزبة المغفلين " حكاية " فتيحة " و هو فلاح مصري ارتبط بأرضه وأحبها كغيره من الفلاحين، يزداد هذا الارتباط مع كل زرع يزرعه وكل حصد يحصده، أرضه هي سر حياته، هي زوجته و أولاده و كل ما يملك، لكنه مجرد مستأجر لهذه الأرض ولا يملكها، يتغير قانون إيجار الأراضي الزراعية، يجد نفسه دونها وحيدا بلا جذور ولا أساس . كيف يتصرف ؟ مفاجأة تحملها هذه اللوحة الأولى .

اللوحة الثانية " مطلب كفر الغلابة " فى أعماق الريف ينشأ صراع بين جيل يعشق الأرض وجيل تربى على ما يشاهده عبر الفضائيات و شبكة الانترنت، صراع بين إدراك قيمة الأرض و حلم الثراء ال... يمسك "معوض" بأرضه المعروفة بأرض المطلب، تظهر مقولة ... تحت قطعة الأرض " المطلب " يوجد كنز .. مَن ينتصر و من ... الكنز و هل هناك كنز بالفعل ؟ كل ذلك و أكثر يظهر فى اللو... مطلب كفر الغلابة .



تصميم الغلاف : إيمان صلاح



ISBN 977645161-6


التوزيع
المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع